عباس محمود العقاد




عبقرية الصدّيق

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
تلفون ٢٣٧٥٤٥ - ص.ب ٨٣٥٥



بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

قبل أن نبين للقارىء هدف العقاد من كتابة هذه السلسلة من المؤلفات ـ أعني العبقريات الاسلامية ، أو قبل أن نبين الدوافع التي حدت به الى أن يتناول بقلمه النر تلك الشخصيات الاسلامية هناك ملاحظة ينبغي أن نلتفت ويلتفت القراء الحصفاء معنا اليها ، وهي أن العقاد لم يكن يهدف بحال من الاحوال الى أن يكتب دراسات تاريخية عن تلك الشخصيات وأولئك العباقرة الافذاذ يبين فيها متى ولدوا ، أو كيف درجوا في صباهم ونشأتهم متخذا الترتيب الزمني أو التوتيق التاريخي القائم على الموازنة بين النصوص التاريخيـة كمـا هو المألوف في دراسات غيره من كتاب السير والتراجم •

فهو ـ أي العقاد ـ قد نبه الى ذلك أكثر من مرة في مقدماتـه لتلـك العبقريات • وحسبنا كلماته التي قدم بها هذا الكتاب الذي نقدمه بين يدي القارىء في صراحة ووضوح يدلان على ذلك المسلك دون سواه •

يقول العقاد : « في تقديم كتابي هذا عن أبي بكر الصديق أقول ما قلته في « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » وكل كتاب من هذا القبيل •

وفحواه انني لا أكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه ، ولا أكتب تاريخا لخلافته وحوادث عصره ، ولا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع ، ولا بالاخبار من حيث هي أخبار ، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعد القارىء بها ويوجه استطلاعه اليها • ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية تعرفنا به ، وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين • فلا تعنينا الوقائع والاخبار الا بمقدار ما تؤدي أداءها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره ••• ولعل حادثا صغيرا يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث اذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، ولمحة مصورة أظهر من لمحته • بل لعل الكلمة الموجزة التي تجيء عرضا في المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ » •

ان ذلك النص العقادي الواضح ليحمل في طياته تبيانا واضحا على أن مؤلف هذه العبقريات لم يقصد الكتابة التاريخية المعروفة والمتداولة ، وانما

كان هدفه الحقيقي من وراء كتابته لتلك السير أمرا آخرا هو الذي دفعه وألح عليه الى أن يتناول تلك الشخصيات بذلك « التشكيل الحر » لو جاز لنا هذا التعبير ٠

فاذا كان كارليل وستيفان زفايج يعتبران على رأس الكتاب الاوربيين في ذلك الاتجاه ، وذلك الاسلوب في تناول السير ٠ فان العقاد يعتبر رائده في الفكر العربي المعاصر ٠ وتحضرني بهذه المناسبة تلك الكلمة الخالدة التي قالها يوما توماس كارليل :

« ان روح تاريخ العالم تكمن في تاريخ أولئك الفحول » ٠٠٠ وما أسعدني لو أستطيع في مثل هذا العصر الذي ضعف فيه اجلال الرجل للرجل أن أفهمكم شيئا من معاني عظمة الابطال » ٠

والقارىء لهذا الكتاب يجد مصداقا لذلك القول في الفصل الذي عنونه العقاد « باسلامه » أي اسلام الصديق رضي الله عنه ٠ يقول :

« ٠٠٠ وقد شك بعض المؤرخين من الاوربيين في اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة المحمديه بزمن طويل ، الا ان الدليل الذي يغني عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الاقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله » ٠

فالعقاد هنا قد رجح دليلا ما على وثائق التاريخ ٠ وبلا ريب فان هذا غير عمل المؤرخ الذي لا دليل له في متل هذا الموقف سوى وثائق التاريخ ونقوشه وآثاره ٠

وعلى هذا الاساس نكون مخطئين لو فاتنا ادراك ذلك السلوك البين في الكتابة ومعالجة السيرة ، أو تجاهلناه فرحنا نحاسب العقاد كما نحاسب المؤرخين ٠

وهذا ما فات الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى عندما وصف رفق كتابة السيرة لدى العقاد بأنها يغلب عليها الاسلوب الانفعالي الذي يتضمن نأيا عن المنهج العلمي السليم ويغلب على معظمها طابع الدفاع والتبرير (١) ٠

لذلك نرانا مضطرين الى الاشارة مرة أخرى الى ما أشرنا اليه في مفتتح هذه الكلمة من أن العقاد لم يكن يقصد الكتابة التاريخية المعروفة بحال من الاحوال فلا يجوز اذن أن نجترىء عليه فنحاسبه كما نحاسب المؤرخ سواء بسواء ٠

---

(١) مجلة الهلال ، ابريل ١٩٦٧ ، العدد الخاص بالعقاد مقال الدكتور احمد عبد الرحيم مصطفى ، صفحة ١١٦ وما بعدها ٠

لقد كان هدف العقاد من وراء اتباع ذلك الاسلوب في المعالجة هدفا أخلاقيا روحيا خالصا نوجزه من كلمات هي :

« الثقة بالروح الالهي الخالد من لوثة المادة ومهانة الانكار العقيم ،

أو مهانة كل اعتقاد وخيم يغلب عليه عامل السلب والنفي على عامل الثبوت والايجاب » .

ونضيف الى ما سبق وهو ان العقاد قد رأى الناس قد اجترأوا على العظمة في هذا الزمن بقدر حاجتهم الى هدايتها .. فان شيوع الحقوق الخاصة ، حقوق العلية القادرين الذين ينفصفهم التمييز وتظلمهم المساواة ، والمساواة هي شرعة السواد الغالبة في العصر الحديث . ولقد جار هذا الفهم الخاطىء للمساواة على حقوق العظماء السابقين كما جار على حقوق العظماء الاحياء والمعاصرين . ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث واعتقادهم أنه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم في كل شيء حتى في ملكات النفوس والاذهان (١) » .

وهناك دوافع لذلك السلوك العقادي لم يذكرها ــ على ما نعتقد ــ ولا بأس من ذكرها لما تضمنته في طياتها من نظرة خطيرة كانت سائدة ولا تزال وهي ذلك الاعتقاد الذي ساد عقليات بعض المفكرين في النصف الاول من القرن العشرين بل لا يزال يؤمن به البعض حتى يوم الناس هذا وهو أن الثقافة الاجنبية برجالها يمكن أن تكون بديلا عن الثقافة الاسلامية .

ازاء ذلك لم يجد العقاد بدا من أن يتصدى بتلك السلسلة من العبقريات الاسلامية للرد على أولئك الذين حاولوا الاجتراء على العقلية العربية وتجريدها من كل قدرة على الخلق والابداع . فاستطاع أن يثبت في تلك العبقريات والتراجم أن العقلية العربية متمثلة في محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعلي وخالد وغيرهم قادرة على الخلق والابداع .

وعلى أية حال فالعقاد يكاد يكون المفكر الاسلامي الوحيد الذي تفرد في الدفاع عن العظمة أيا كان معدنها ذلك لان القاعدة التي كان يختار على أساسها ترجمة ما ليكتب فيها هو أن تكون تلك الكتابة لازمة لابراز حق ضائع أو حقيقة مجهولة . وتستوي في ذلك لديه سير العظماء والنوابغ من كل طراز ، وفي كل طبقة من طبقات العظمة والنبوغ (٢) .

---

(١) عبقرية محمد للعقاد صفحة ١٢ .

(٢) موضوعي وكيف اختاره ، مقال للعقاد ، مجلة قافلة الزيت يوليو ١٩٦٢ .

واحقاقا للحق ، ووضعا للامور في نصابها فاننا لم نر العقاد قد حاد عن الحق في أية من تلك العبقريات أو التراجم ، كما أنه لم يلق بين صفحاتها بدعوى من غير برهان مقنع ، بل رأيناه يؤيد كل ما قاله بشواهد من التاريخ • وفي هذا دلالة قاطعة على أن الرأي القائل بأن اسلوب العقاد في معالجة تلك التراجم والسير قد غلبت عليه الانفعالية التي نأت به عن المنهج العلمي السليم قد جانبه الصواب • فمن الانصاف للرجل وللعصر وللدراسات الادبية أن ندع ذلك الهوج العلمي أو الاندفاع الفكري الـذي يتشدق به البعض ممن يبوؤن أنفسهم مقعد أساتذة النقد والتمحيص •• والسؤال الذي يفرض نفسه على أولئك البعض هو : لم نسمي تلـك النزعة انفعـالا ؟ ألم يكن من الانصاف لانفسنا وللرجل أن نسميها « تأكيدا » •

* * *

بعد تلك العجالة الخاطفة عن العقاد ومنهجه في كتابة العبقريات فاننا نعود بالقارىء الى هدفنا الاساسي من كتابة هذه الكلمة التي نصدر بها هذه الطبعة من « عبقرية الصديق » الخليفة الاول لرسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وصاحبه الوفي الامين ، « وثاني اثنين اذ هما في الغار » وهو الذي قال عنه النبي عليه السلام :

« ما لاحد عندنا يد الا وقد كافيناه بها ، ما خلا أبا بكر فان له يدا يكافيه الله بها يوم القيامة » •

لقد أوفاه العقاد حقه من التقدير والتوقير في هذه الدراسة بلا مراء • وأثبت لقرائه بما لا يدع مجالا لباحث من أنه الصديق قولا وفعلا وعملا في كل خلائقه وشمائله •• فهو الكريم السمح الودود •• وهو الامين في الصداقة، والامين في السيرة ، والامين في المال ، والامين في الايمان ، والاميـن في الحكومة الى جانب شجاعته في الرأي وفي القتال •• ثم هو في كل أولئك أكثر من الامين •

ولم يفت العقاد في هذه الدراسة أن يعالج كالعهد به العديد من صفات الصديق أبي بكر رضي الله عنه في اسلوب جزل رصين اشتهر به العقاد بين كتاب عصره • فناقش خلال صفحاته دعاوى المستشرقين وأباطيل المبطلين فيما يتعلق ببعض مراحل حياة الصديق رضي الله عنه ومواقفه مدعما كل ذلك بالدليل الواضح والحجة البينة التي لا نملك ازاءها سوى التسليم •

وقد تألق العقاد في هذه الدراسة عندما تصدى للرد على تلك الفرية الكبرى التي تقول بها بعض أعداء الاسلام بالنسبة لخلافة أبي بكر • قالت تلك الفرية : « ان هناك اتفاقا سابقا ومؤامرة دبرت بين أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ليأخذ الخلافة الاول والثاني فالثالث رضوان الله عليهم •

وفي هذا الصدد استطاع العقاد العاشق للعبقرية الاسلامية أن يبطل بالمناقشة والادلة تلك الفرية بثماني نقاط جعلها محور دفاعه فاذا بالفرية تقف عارية واهية لا تجد ما تستتر به نفسها أمام القراء •

انها لقدرة من الجدل والمناقشة آتاها الله العقاد وخصه بها وصدق الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه: « يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا وما يذكر الا أولوا الالباب » (١) •

كما تألق العقاد ـ كذلك ـ في هذه الدراسة عن الصديق أبي بكر عندما قارن بين أبي بكر وعمر في علاقتهما بالنبي صلى الله عليه وسلم فأثبت بالادلة والبراهين ان أبا بكر نموذج للاقتداء في صدر الاسلام ، وعمر نموذج للاجتهاد• وكلاهما كان يحب النبي ويطيعه ويحرص على سنته ، ويعجب به غاية ما في وسعه من اعجاب •

ولم يفت العقاد أن يصحب القارىء معه ـ كالعادة دائما ـ الى منعطفات فكره الدقيق عندما فرق بين حب كل منهما للنبي عليه السلام وايمانه بدعوته في ابان ظهورها فيقول :

« •• لكن حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه الى الايمان بنبوته ، واقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه الى حبه والولاء له والحرص على سنته وعلى رضاه •• وعلى هذا يمكن تفسير كثير من أعمال الرجلين التي بدت متقابلة سائرة في طريقين : أبو بكر لاعجابه بمحمد النبي كان فيهما أول المقتدين ، وعمر لاعجابه بالنبي محمد كان فيها ثاني المجتهدين » •

وبعد •• لقد كانت ثقافة العقاد في التأريخ الاسلامي واطلاعه على مراحله المختلفة وعاء صبت فيه تلك الشخصيات أعمالها وتحركت على مداها مؤثرة ومتأثرة بها •• فهي ـ بلا ريب ـ ثقافة واسعة شاملة واعية •• فهي لم تقتصر على تاريخ الشخصيات بل تعدته الى تاريخ الأمة التي نشأوا فيها ، والبيئة التي نهلوا من مواردها والشخصيات التي شاركتهم في احداثها •• والتيارات التي كانت تموج في الأمة العربية في تلك العصور •

لذلك فان قراءتنا لتلك السلسلة من العبقريات تملأ النفس بتصور دقيق للمجتمع الاسلامي في عصر النبوة وعصر الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم •

لذلك كانت ملكة العقاد الادبية وطواعية قلمه له ، ولماحيته الفذة من العوامل التي ساعدت في رسم تلك الصورة النفسية للصديق رضي الله عنه فتعرفنا به وتجلي لنا خلائقه وبواعث أعماله •

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩ •

ان العقاد في هذا الكتاب صاحب اسلوب أدبي معبر عن المعنى أدق تعبير ٠٠ باختصار يمكننا أن نقول انه اسلوب العقاد في سائر عبقرياته الاخرى على الرغم من « المنهج النفسي » الذي آثره من بين مناهج الكتابة عند تناوله تلك الشخصيات والسير ٠ وهكذا استطاع العقاد أن يصحبنا معه في سيرة « الصديق » من نشأته وصفاته وتوليه الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها حتى انتهت حياته التي « بلغت نهايتها في حيز الجسد ، وفي حيز المجد ، وفي حيز التاريخ ٠

بقيت كلمة موجزة لا نرى بأسا من أن تكون خاتمة هذا التصدير أو هذه المقدمة ــ كما يحلو للبعض أن يطلقوا عليها ٠ فاننا نقول أننا قصدنا بها التصدير وليس التقديم ذلك لان العقاد ليس في حاجة الى تقديم أحد ، هذا من ناحية ، أما الاخرى فانه لم تجر العادة على أن يقدم الصغير الكبير ٠٠ وليس هذا نوعا من الغرور فنحن بحمد الله قد وقانا الله شره وعقابيله ٠

انها كلمات مبتسرة خالصة نؤدي بها واجبا من واجبات اعادة الطبع لهذا الكتاب القيم في سلسلة العبقريات الاسلامية الخالدة التي تضطلع بنشرها المكتبة العصرية بلبنان لصاحبها الناشر السيد شريف عبد الرحمن الانصاري الذي شاءت له الظروف أن يعيد طبع ونشر تراث المفكر الاسلامي الراحل في طبعات معتمدة من ورثته الشرعيين تخالف تلع الطبعات التي سبق لدار الكتاب العربي أن أصدرتها ولم تتحر الدقة في تصحيحها كما اجترأت في بعضها بالحذف والتحريف فيما سطرته يراعة صاحبها في حياته ٠

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون صاحب هذا التراث الاسلامي القيم راضيا عما نقوم به في هذه الطبعة فتطل علينا روحه من سمائها مباركة لهذا الجهد المتواضع ٠٠٠ وحسبنا انها بنان تومىء الى تلى المكانة التي تبوأها العقاد ابان حياته وبعد مماته في عالم الفكر الاسلامي الاصيل ٠٠ وقديما قيل : ان البنان لاقدر على الاشارة من الباع على الاحاطة ، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير ٠

عامر العقاد

تقديم

في تقديم كتابي هذا عن أبي بكر الصديق أقول ما قلتـــه في « عبقرية محمد » و « عبقرية عمر » وكل كتاب من هذا القبيل ، وفحواه انني لا أكتب ترجمة للصديق رضي الله عنه ، ولا أكتب تاريخا لخلافته وحوادث عصره ، ولا أعني بالوقائع من حيث هي وقائع ولا بالأخبار مـــن حيث هي أخبـــار ، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر في عناوين الكتب ما يعد القارىء بها ويوجه استطلاعه اليها ، ولكنما قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية، تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله ، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين · فلا تعنينا الوقائع والأخبار الا بمقدار ما تؤدي أداءها في هذا المقصد الذي لا مقصد لنا غيره ، وهي قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبر أو الصغر الا بذلك المقدار ، ولعل حادثا صغيرا يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث اذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته ، ولمحة مصورة أظهر من لمحته · بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التي تجيء عرضا في بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها في مقياس التاريخ ·

ومن همنا أن تكون الصورة صادقة كل الصدق في جملتهـــا وتفصيلها ··· فليس من غرضنا التجميل الذي يخرج بالصورة عن حقيقتها ، ولسنا نريد أن يطلع القارىء على تلك الصورة فلا يعرفها ولا يعرف أبـــا بكر منهـــا ولكـــن تجميـــل الصورة شيء ، وتوقير صاحبها شيء آخر ، فانـــك اذا صورت أبا بكر ورفعت صورته مكانا عليا لم تكن قـــد أضفت اليه جمـــالا غير جماله أو غيرت ملامحه النفسية بحيث تخفى على من يعرفها ، فهذا هو التوقير الذي لا يخل بالصورة ولا يعاب على المصور ، وليس هو بالتجميل المصطنع الذي يضل الناظر عن الحقيقة ·

فكل فضيلة أثبتناها لأبي بكر في هذه الصفحات فهي فضيلته التي لا نزاع فيها ، وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال ، وما من عمل لم يعمله قلنا انه قد عمله ، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته ، ثم يتوسمه القارىء بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله ، فهو محمود موقر وعمر بن الخطاب في صورته محمود موقر ، ولكنهما مع ذلك لا يتشابهان ولا يتراءى أحدهما في ملامح الآخر ، وهذا قصاراك من صدق الصورة في تمييز الرجل بين نظراته ، وفي تمثيله بما فيه وما ليس فيه ٠

انك حين تعدد ثروة رجل فتقول : انه صاحب عشرة بيوت ، لا يلزمك بعد ذلك أن تقول : ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ولا أوراق مالية ولا معامل صناعية ولا مرتبات حكومية ، واذا أنت سكت عن هذا قاصدا أو غير قاصد لم يجز لأحد أن يلومك أو يظن بك تعمد الاخفاء والسكوت ، فحسبك انك ذكرت ثروته الصحيحة ولم تضف اليه ما ليس من ماله لتكون قد أعلمت من يريد العلم بثروته غاية ما ينبغي أن يعلم ٠

وكذلك الشأن في ثروات النفوس حين يحصيها المقدرون : تصدق ان ذكرت له ما يملك ، ولا يفوتك الصدق ان فاتك أن تحصي كل ما ليس له بملك ، فليس هذا بغرض من أغراض الاحصاء أو التعريف ٠

ومذهبنا الذي نتوخاه في الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم في خدمة الانسان أن نوفيهم حقهم من التوقير ، وأن نرفع صورهم الى مكان التجلة ، وان لم يمنعنا هذا أن نصدقهم الوصف والتصوير وقد عبرت عن هذا المذهب شعرا قبل ثلاثين سنة فقلت من أبيات :

لا تلـح ذا بأس وذا همـة على ذنوب العصبـة الغلب
فليس مقياسـك مقياسهـم ولا هـم مثلـك في المـآرب
أنظر الى ما خلفوا بعدهـم من المعالي ثـم لـم وأعتب
من ركب الهائل مـن أمـره فعـذره في ذلـك المركـب

ونحسب هذا المذهب في زماننا هذا أوجب مما كان في الأزمان الغابرة ، لأن الأسباب التي تغض من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر الى الآن ، وهي مما يحدث عفوا في بعض الأحيان ، ومما يأتي قصدا في أحيان أخرى ، وقد تفيد الاشارة اليها في اتقائها اذا كان الى اتقائها سبيل ·

بدأت هذه الأسباب بفهم سيء للمنازعات التي شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة · فوقر في بعض الأذهان ان العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الالهية والدنيوية ، وخلط أناس بين دعاة الأديان الذين أخلصوا العقيدة في اصلاح وبين رجال الأديان الذين استغلوا العقائد وتعمدوا انكار الحقائق ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة في طريق التقدم والتهذيب ·

فالمصلحون من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل ، لا يعيبهم انهم سبقوا عصر العلم الحديث ، بل يزكيهم ذلك ويضاعف حقهم في الثناء وعرفان الجميل ، ويدل على ان الحاجة اليهم كانت أمس وألزم وانهم كانوا في خدمتهم الانسانية أقدر وأعظم ، مع ما هو مفهوم من الفارق بين حاجة الناس الى الدين وحاجتهم الى العلوم · فهذه حاجة ذهنية وتلك حاجة حيوية أو روحية لا تغني فيها علوم العلماء ·

ثم جاءت الديمقراطية وأساء بعض الناس فهمها كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين ، فظنوا ان حرية الصغير تجعله في صف الكبير ، وان المساواة القانونية تلغي الفوارق الطبيعية ، وان الثورة على الرؤساء المستبدين معناها الثورة على كل ذي مكانة من العظماء ، وهو وهم ظاهر البطلان ولكنه قد سرى مسراه الى الأذهان ، فكثر التطاول على كل عظمة انسانية ، وفشت بدعة الاستخفاف والزراية حتى أوشك التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب ·

ثم جاءت الشيوعية وهي قائمة على ان الأبطال صنائع المجتمع وليسوا بأصحاب الفضل عليه ، وان تعظيم الأبطال الغابرين يصرف الناس عن عيوب النظم الاجتماعية التي أنشأت

أولئك الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين أو على غير قصد منهم وتدبير ، وأفرط الشيوعيون في تلويث كل عظمة يؤدي توقيرها الى نقض مذهبهم ومخالفة دعوتهم ، حتى بلغ من سخفهم في هذا انهم غيروا أبطال الروايات في مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا « هملت » على المسرح لئيما ماكرا سيء النية على خلاف ما صوره الشاعر ، لأن تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى في صورة حسنة يخل بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية في تلك القرون ٠

وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغض من العظماء حتى صح عندنا ان العظمة في حاجة الى ما يسمى « برد الاعتبار » في لغة القانون ، فان الانسانية لا تعرف حقا من الحقوق ان لم تعرف حق عظمائها ، وان الانسانية كلها ليست بشيء ان كانت العظمة الانسانية في قديمها أو حديثها ليست بشيء ٠

ومن ثم مذهبنا في توقير العظمة مع التفرقة بين التوقير المحمود والتجميل المصطنع الذي يعيب المصور ويضل الناظر الى الصورة ٠ فليس لنا أن نثبت جمالا غير ثابت ، ولكن لنا ـ بل علينا ـ متى أثبتنا الجمال في مكانه أن نرفع الصورة الى مقام التوقير ٠

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين من نقده لكتاب هيكل (باشا) في الصديق وكتابي في عبقرية عمر : « ٠٠٠ بقيت مسألة هامة كثيرا ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها ، وهي ان العظيم مهما عظم له خطآت ، والا ما كان انسانا والعصمة لله وحده ٠ فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك في تفصيل ، فيذكر كل ما له ويشيد بذكره ويذكر خطآته وينقدها ، ويعلم بذلك درسا في نواحي مجده ، ودرسا آخر في مواضع خطئه ، أو واجبه فقط تجلية نواحي العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحي الخطأ ؟ أنا أرى ان الرأي الأول أوجب ، متأسيا بأبي بكر وعمر نفسيهما ، والمؤلفان الفاضلان الى الرأي الثاني أميل » ٠

والواقع اننا الى الرأي الثاني أميل كما قال زميلنا الأستاذ ،

ولكنه الميل الذي نحده بما قدمناه من حدود ، ونحتج له بما بيناه من أسباب

ويخيل الينا ان الأستاذ نفسه يستطيب هذا الميل حين قال في صدر مقاله عن الكتابين : « ... ان الأوروبيين قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمائهم ويستقصي نواحي مجدهم ، بل قد دعتهم العصبية أحيانا أن يتزيدوا في نواحي هذه العظمة ، ويعملوا الخيال في تبرير العيب وتكميل النقص تحميسا للنفس واثارة لطلب الكمال . آما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا سدود وحواجز حالت بين شبابنا وجمهورنا والاستفادة منهم» ..

فهذه السدود كثيرة في الشرق ، كثيرة في العصر الحاضر حيث كان ، وهي التي تجيز لنا ـ بل تفرض علينا ـ أن نوفي العظماء حقهم من التوقير ، وأن نصورهم كما خلقهم الله ، ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق في التصوير .

عباس محمود العقاد

* * *

اسم وصفة

عرف الخليفة الأول في التاريخ بأسماء كثيرة : أشهرها أبو بكر والصديق ، ويليهما في الشهرة عتيق وعبد الله ·
وقيل انه عرف بهذه الأسماء أو الألقاب في الاسلام والجاهلية على السواء ·

عرف في الجاهلية بلقب الصديق لأنه كان يتولى أمر الديات(١) وينوب فيها عن قريش ، فما تولاه من هذه الديات صدقته قريش فيه وقبلته ، وما تولاه غيره خذلته وترددت في قبوله وامضائه ·
وعرف بالعتيق لجمال وجهه ، من العتاقة وهي الجودة في كل شيء ، وقيل : بل من العتق ، لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبة وقالت : اللهم ان هذا عتيقك من النار فهبه لي · فعاش فعرف باسم عتيق ··· وقيل غير ذلك : انه أحد ثلاثة أبناء هم : عتيق ومعتق ومعيتيق ، سموا بذلك تفاؤلا بالعيش والعتق من الموت ·

وعرف كما قيل في بعض الروايات باسم عبد الكعبة في الجاهلية ، ثم عبد الله في الاسلام ·

وسمي في الاسلام بالصديق لأنه صدق النبي عليه السلام في حديث الاسراء ، وبالعتيق لأنه عليه السلام بشره بالعتق من النار ·

ومن الجائز انه عرف بهذه الألقاب على محملها في الجاهلية ومحملها في الاسلام · ففي حياته وسيرته قبل الاسلام وبعده ما يحقق هذه التسمية أو هذا التلقيب ·
ولد للسنة الثانية أو الثالثة من عام الفيل ، فهو أصغر من النبي عليه السلام بنحو سنتين ، وهو عبد الله بن عثمان الذي عرف باسم أبي قحافة ، ويلتقي نسبه ونسب النبي عليه السلام

(١) الديات : جمع دية وهي ما يعطى من المال بدل القتيل ·

عند مرة بن كعب ، بعد ستة آباء • وكلا أبويه من بني تيم ، وهم قوم اشتهر رجالهم بالدماثة والأدب ، واشتهر نساؤهم بالدل والحظوة،وقيل ان بنات تيم أدل النساء وأحظاهن عند الأزواج • وربما كان مرجع ذلك الى طول عهد القبيلة بحياة المدينة وأشغالها ، وان اشتغالها بالتجارة كان يقوم على المودة وحسن المعاملة ولا يقوم على بسطة النفوذ وصولة الوفر والغلبة • فبنو أمية ــ مثلاــ كانوا يتجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يرسل القوافل بين الحجاز والشام ، ولكنها قوافل أشبه بالحملات والبعوث ، معولهم فيها على الوفر والوفرة ، وليست كذلك تجارة أبي بكر ، واخوانه من ابناء البطون القرشية التي لها شرف النسب في غير مكاثرة بالعدد والعدة ، ومغالبة بالصولة ودهاء القوة ، كمغالبة الأمويين •

ومهما يكن من أثر المعاملة الودية وآداب الأسرة والمدنية في بني تيم ، فهذه الآداب واضحة في أسرة الصديق رضي الله عنه أجمل وضوح ، لم تذكر لنا قط أسرة كانت في عصره على مودة أجمل من المودة التي اتصلت بينه وبين أبيه وأمه وأبنائه ، مدى الحياة • وقد كان له ابن حارب في صفوف المشركين ، وأوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال ، ولكننا اذا تجاوزنا هذه الفلتة من فلتات السن رجعنا الى أبوة لا عقوق فيها بعد اهتداء ذلك الابن الى الاسلام ، كما اهتدى اليه سائر ذويه •

عاش أبو قحافة حتى رأى ابنه خليفة يرفع صوته على أناس لم يكن في مكة أرفع منهم صوتا وأعظم خطرا ، وكان مكفوف البصر على باب داره بمكة يوم أقبل أبو بكر اليها معتمرا بعد مبايعته بالخلافة ، فقيل له : هذا ابنك : فنهض يتلقاه ، ورآه ابنه يهم بالنهوض فعجل نازلا عن راحلته وهي واقفة قبل أن ينيخها ، وجعل يقول : يا أبت لا تقم ! ثم لاقاه والتزمه وقبل بين عنيه ، ولم ينتظر ــ وهو في نحو الستين ــ أن ينيخ لينزل منها ، مخافة على أبيه من مشقة النهوض •

ودعا (١) الخليفة بأبي سفيان لأمر أنكره فأخذته الحدة التي

---

(١) دعا به : استحضره •

كانت تراجعه في بعض ثورات نفسه ، وأقبل يصيح على أبي سفيان وهو يلين له ويسترضيه • فسأل أبو نحافة فائده : على من يصيح ابني ؟ فقال : على أبي سفيان ! • • • فدنا منه يقول له وفي كلامه من الغبطة أكثر مما فيه من الانكار ، وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة : أعلى أبي سفيان تصيح وترفع صوتك يا عتيق ؟ لقد عدوت طورك وجزت مقدارك !

فابتسم أبو بكر والصحابة ، وقال لأبيه المنكر في رضاه الراضي في انكاره : يا أبت ان الله رفع بالاسلام قوما وأذل به آخرين •

وهذه الطيبة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت من هذا الأب الصالح ، يوم نعوا اليه رسول الله فقال : امر جلل •وسأل: ومن ولي الامر بعده ؟ قالوا : ابنك ، فعاد يسأل : فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم • • • قال : لا مانع لما أعطى الله ، ولا معطي لما منع !

بل هذه الطيبة التي لا تخلو من دهائها هي التي ظهرت منه حين هاجر ابنه مع النبي عليه السلام فأقبل على أحفاده يسألهم: ما ترك لكم بعد هجرته من المال ؟ وهي التي ظهرت منه حين ذهب ابنه ينفق من ماله لاعتاق الأرقاء الذين عذبهم المشركون فكان يقول : لو انك اذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدا (١) يمنعونك ويقومون دونك ؟ ويقول له ابنه : يا أبت اني أريد ما عند الله •

ثم عاش الأب الصالح حتى قبض ابنه العظيم فرد ميراثه منه الى أحفاده وسأل حين بلغته وفاته وهو يقول : رزء جلل ، رزء جلل • فمن ولي الأمر بعده ؟ قالوا : عمر ، قال صاحبه • • • يعني صاحب الأمر أو صاحب الصديق ، في ايجاز كاف كايجاز ابنه العظيم •

كثير مما في أبي بكر من هذا الأب الصالح : طيبة في يقظة في استقامة ، ويزيد عليه ابنه في كل وصف حميد •

---

(١) جلدا : أشداء وذوو صلابة •

الصديق الأول والخليفة الأول

في رواية من أشهر الروايات عن مرض النبي صلى الله عليه وسلم ان مؤذنه بلالا جاءه يوما ، وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام :

مروا أبا بكر فليصل بالناس ·

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله ! ان أبا بكر رجل أسيف (١) ، وانه متى يقم مقامك لا يسمع الناس · فلو أمرت عمر ؟

فقال عليه السلام مرة أخرى : مروا أبا بكر فليصل بالناس·

فعادت عائشة تقول لحفصة : قولي له : ان أبا بكر رجل أسيف ، وانه متى يقم مقامك لا يسمع الناس · فلو أمرت عمر ؟

فأعادت حفصة ما قالته لها عائشة ·

وضجر عليه السلام من هذه المراجعة ، فقال ، انكن أنتن صواحب يوسف · ثم قال لثالث مرة : مروا أبا بكر فليصل بالناس ·

وروى عبد الله بن زمعة انه خرج من عند النبي ، فاذا عمر في المسجد وأبو بكر غائب · فقال : يا عمر · قم فصل بالناس · فتقدم فكبر ، وكان رجلا مجهرا (٢) · فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته سأل : فأين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون ، يأبى الله ذلك والمسلمون ·

ولام عمر عبد الله بن زمعة قائلا : ويحك ! ما صنعت بي يا ابن زمعة ؟ والله ما ظننت حين أمرتني الا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك · ولولا ذلك ما صليت بالناس ·

قال ابن زمعة : والله ما أمرني رسول الله صلى عليه وسلم

---

(١) أسيف : حزين ·

(٢) مجهر : من كانت عادته أن يتكلم بصوت مرتفع ·

بشيء ، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس ٠

وموضع العجب في هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضي الله عنها في تبليغ أمر النبي باقامة أبيها مقامه في الصلاة ، وقد تكرر الأمر أكثر من مرة ٠

فهذا التردد عجيب من وجوه :

عجيب أن تتردد في تبليغ أمر محمد عليه السلام ، وهو الزوج المحبوب والنبي المطاع ٠

وعجيب أن تتردد في تبليغه ، وهو تشريف لأبيها بمقام كريم تتطاول اليه الرقاب ٠

ويزيده عجبا أن يحدث في شدة المرض والنبي مجهد يطلب الراحة ، وهي أشد نسائه سهرا عليه في مرضه ، وأرعاهم له بما يريحه ، ويخفف الجهد عنه ٠

نعم ان عائشة رضي الله عنها كانت أكثر الناس دالة على النبي وأجرأهم على مراجعته ، والتلطف في ابلاغه ما يتهيب القوم أن يبلغوه فلئن كانت هي أولى الناس أن تطيعه وتبلغ أمره ، لقد كانت كذلك تعلم من مكانتها عنده ما يبيح لها أن تراجعه وتأمن غضبه ، لدالتها عليه وثقته من مضمر حبها له وامتثالها لأمره ٠

الا انها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله بما لها من صفات كثيرة غير الصباحة والجمال ، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير ٠

وخليق بمن كانت في مثل ذكائها ولطافة حسها وحسن تقديرها أن تفطن الى الجد في ذلك الموقف العصيب ، وفي ذلك البلاغ الخطير ٠٠

وهيهات أن تتردد يومئذ عن دلال في غير موضعه ، ولأسباب غير السبب الذي يمكن أن يوحي اليها ذلك التردد ، ولا بد له من سبب عظيم ٠

ولقد كان له سبب عظيم ٠

بل هو أعظم الأسباب التي يمكن أن توحي اليها ذلك التردد ، ولولاه لما أقدمت عليه ٠

وما نحسب أن شيئا حفظته الروايات التاريخية لنا عن ذكاء السيدة عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء ، كما دل عليه ترددها في ذلك الموقف العصيب ٠

يكفي أن نستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبي عليه السلام لنعلم مبلغ ذلك الذكاء العجيب في مقتبل الشباب ونكبر ذلك النظر الثاقب الى أبعد العواقب ، ونلتمس لها العذر الذي يجمل بأمرأة أحبها محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الاعزاز ٠

فقد قيل في الخلافة بعد النبي كثير :

قيل فيها ما يخطر على بال الاكثرين ، وما يخطر على بال الأقلين ، وما ليس يخطر على بال أحد الا أن يجمح به التعنت والاعتساف أغرب جماح ٠

قيل : ان وصول الخلافة الى أبي بكر انما كان مؤمراة بين عائشة وأبيها !

وقيل : انه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على ما تآمروا فيه ، بما كان لها من الحظوة عند رسول الله ، وكان هؤلاء الرجال على زعم أولئك القائلين أبا بكر وعمر وأبا عبيدة ابن الجراح ، وهم الذين أسرعوا ـ من المهاجرين ـ الى سقيفة بني ساعدة ليدركوا الأنصار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله ٠

وقيل : ان هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقب الحكم واحدا بعد واحد : أبو بكر فعمر فأبو عبيدة ، ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة : لو كان أبو عبيدة حيا لعهدت اليه لأنه أمين الأمة ، كما قال فيه رسول الله ، وهذا زعم روجه بعض المستشرقين ولقي بين القراء الأوربيين كثيرا من القبول ، لأنه شبيه بما عهدوه في أمثال هذه المواقف من أحاديث التدبير والتمهيد وروايات التواطؤ والائتمار ٠

فالسيدة عائشة مسعودة الحظ لا مراء، لأنها لم تخالف محمدا قط في أمر خطير ، وحين خالفته أو ترددت في تبليغ كلامه في أمر من أخطر الأمور ، كان هذا التردد أدل على مكانتها وفضلها

وعلى استحقاقها لمنزلة الايثار في ذلك القلب العظيم ٠

فهي قد ترددت لتبريء نفسها من القالة ، وتبرىء ذلك الموقف الخطير من المظنة ، وتبرىء الخلافة من أسباب الادعاء ، وقد يكون فيها اضعاف وايذاء ٠

وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة في ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضي الله عنهما ٠

فاذا علمت حفصة ان عائشة راجعت رسول الله مرتين في تبليغ الأمر الى أبيها أن يصلي بالناس ، فقد علمت ذلك من هي أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين ، اذ كان عمر رضي الله عنه أحد اثنين في حق الخلافة لا يذكر أحدهما الا ذكر الآخر ، كما ظهر ذلك من واقع الأمور ، أو كما ظهر من قول عبد الله بن زمعة لعمر : « حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس » ٠

فتردد عائشة في ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع ، وكان أنفع من اسراعها بالتبليغ ، وأول ما نفع به انه أظهر رغبة النبي اظهارا لا مجال للظنة فيه ، فكان ذلك من ادعى دواعي الاتفاق على الاختيار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق ٠

نعم ان رواية من الروايات تزعم لنا ان السيدة عائشة رضي الله عنها ترددت في التبليغ لأنها أشفقت أن يتشاءم الناس برؤية أبيها في مقام يذكرهم بالخطر على أحب الناس اليهم في ذلك المقام ، وتلك سانحة يجوز أن تسنح لها وهي أشد الناس احساسا بذلك التشاؤم ووقعه في نفوس المسلمين ٠ ولكننا اذا سلمنا انها رضي الله عنها قد تعمدت الابطاء في التبليغ ، فالسبب الذي أومأنا اليه آنفا أولى وأليق بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم ٠ لأنها لا تجهل النبي في مرضه ولا تفوت على أبيها شرف الخلافة حذرا من التشاؤم وحده ، ثم هي لا تدعو حفصة الى تعريض عمر لموقف تصون عنه أباها ٠ فان كان تعمد للابطاء في التبليغ فذلك السبب الذي أومأنا اليه آنفا أحق الأسباب أن يرجح على غيره لتفسير ذلك الابطاء ، فهو أدعى أن يبطل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يقترن بغيره من الأسباب ٠

ويقل العجب من تردد السيدة عائشة كلما ازداد العجب من تلك الفروض والأقاويل التي خاض فيها من خاض عن «مؤامرة» الخلافة المزعومة ، وليس لها سند من التاريخ ، ولا من التفكير القويم ، ولا من المعهود في أخلاق الرجال والنساء الذين عزيت اليهم تلك المؤامرة بغير بينة قاطعة ولا ظن راجح ·

فليس في شيء رواه الرواة عن الخلافة بعد النبي عليه السلام كلمة واحدة ترجح تلك الفروض والأقاويل ، سواء كان قائلها ممن أسرعوا الى بيعة الصديق أو تباطئوا في بيعته ، أو قضوا حياتهم ولم يبايعوه ·

وليس في شيء من خلائق أبي بكر وعمر وأبي عبيدة التي عهدها الناس منهم في حياة النبي أو بعد وفاته ما يأذن لمتوهم أن يتوهم فيهم التآمر على خلافته وهو بقيد الحياة ، دون أن يطلعوه على جليلة أو دقيقة مما يفكرون فيه ·

وليس في سيرة أبي بكر وعمر بعد أن وليا الخلافة ما ينم على طمع في السطوة ، وحرص على زهو الملك يغريهما باستباحة ثقة النبي في حياته بما لا يليق · وهو عندهما بمكان من التجلة والحب لا تتطرق اليه الشكوك ولا ترتفع اليه الشبهات ·

وعلى نقيض ذلك تدل الحوادث والروايات التاريخية على ان الأمر قد وقع منهم جميعا موقع المفاجأة التي لم يتدبروا فيها الا بعد وقوعها ، ولم يبرموا فيها الرأي على نحو من الأنحاء قبل اجتماع الأنصار بسقيفة بني ساعدة ·

فالأقوال تتفق ـ أو تكاد تتفق ـ على أن أبا بكر لم يكن قريبا من النبي عليه السلام يوم أمر النبي بلالا أن يدعوه الى الصلاة بالناس ، ولو كان بينه وبين السيدة عائشة اتفاق في هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبي في تلك اللحظة لازما كل اللزوم لانجاز ذلك الاتفاق ، والا توجهت الدعوة الى غيره وخرج الأمر من أيدي المتفقين ·

وقد توفي النبي عليه السلام وليس في أصحابه الأقربين من كان يتوقع وفاته ، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول : يا نبي الله ! اني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب واليوم يوم بنت خارجة ، أفآتيها ؟

فأذن له النبي في الانصراف : وخرج أبو بكر الى « السنح » حيث كان يقيم ·

أما عمر فقد دهش لنعي النبي تلك الدهشة التي لم يكن لها على أهبة ، ولو كان على أهبة لها لقد كان الأحرى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها ، تمهيدا لذلك الاتفاق المزعوم الذي سيتلوها ·

وبلغ أبا بكر وعمر ان الأنصار مجتمعون في سقيفة بني ساعدة لاختيار الخليفة منهم ، فخرجا الى السقيفة على غير اتفاق بينهما أيهما الذي يخاطب القوم · فكان عمر يخشى حدة أبي بكر فيهيىء في نفسه كلاما يقوله ، وكان أبو بكر يخشى حدة عمر فيستهمله ويخاطب القوم قبله ، وليس في ذلك دليل اتفاق قديم ·

وكان لقاؤهما أبا عبيدة يومئذ لقاء مصادفة في الطريق · وجاء في رواية مشهورة ان عمر فاتح أبا عبيدة قبل ذلك فقال له: أبسط يدك فلأبايعك · فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله · فقال له أبو عبيدة : ما رأيت لك فهة (١) قبلها منذ أسلمت · أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين ! فاذا صحت هذه الرواية فهي تنفي ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبي بكر وتعاقب الخلافة بعده ، وقد يكون عمر فاتح أبا عبيدة عازما على مبايعته ، أو فاتحه لاستطلاع ما عنده من الرأي والرغبة ، فعلى كلتا الحالتين لا تفاهم من قبل على ذلك الرأي ولا اتفاق ·

هكذا تلقى الصحاب الأجلاء نعي النبي ، وهكذا كانوا في أثناء شدة المرض عليه فمتى كان التفاهم المزعوم ؟ أقبل أن يمرض رسول الله يعقل عاقل أن يجتمع صفوة أصحابه والمؤمنين برسالته للتآمر على وراثته واغتنام موته ؟ ان جاز في عقل عاقل هذا ، فمن أدراهم اذن ان القرآن الكريم لا يوحي برأي في الخلافة غير الذي رأوه ؟ ومن أدراهم اذن ـ سلفا ـ ان النبي عليه السلام يفارق هذه الدنيا ولا يوصي في أمر الخلافة بوصاة يشهدها الناس عامة وتخالف ما اتفقوا عليه ؟

(١) الفهة : الزلة ·

ان الأمر لم يكن قابلا لأن يحصل فيه غير ما حصل ، بعد حسبان كل حساب ، واستقصاء كل فرض ، وتمحيص كل رواية ٠

ولم يكن فيه اتفاق مدبر على صورة من الصور ، وانما هو كما قال عمر رضي الله عنه : « ان بيعة أبي بكر كانت فلتة ٠٠٠ الا وان الله وقى شرها » ٠

وما حاجة الأمر الى تمهيد وقد كان في غنى عن التمهيد ؟

لقد كان اختيار أبي بكر للخلافة « خيرة » الواقع الذي لا يحتاج الى تدبير ، بل يقاوم كل تدبير ٠

فمن غير أبي بكر كانت تجتمع له الشرائط كما اجتمعت له ، وتتلاقى عنده الوجهات كما تلاقت عنده ؟

كانت تجتمع له شرائط السن ، والسبق الى الاسلام ،وصحبة النبي في الغار ، والمودة المرعية بين أجلاء الصحابة ، ومعظمهم ممن دخلوا في الدين على يديه ٠

وكانت امارات استخلافه ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبي عليه السلام بسنوات ٠ فكان أول أمير للحج بعث به النبي عليه السلام وهو بالمدينة ٠ وكان ذلك سنة تسع من الهجرة ، واتفق في طريقه انه دعا الى صلاة الصبح فسمع رغوة ناقة وراء ظهره ، فوقف عن التكبير وقال : هذه رغوة ناقة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ الجدعاء فلعله أن يكون رسول الله فنصلي معه ٠ فاذا علي بن أبي طالب على الناقة ٠ فسأله أبو بكر : أمير أم رسول ؟ قال : لا ٠ بل رسول ٠ أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة أقرؤها على الناس ٠ فلما قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدثا عن المناسك ، وقرأ علي سورة براءة حتى ختمها ، ثم كان يوم عرفة فخطب أبو بكر وقرأ علي السورة ، وهكذا حتى انتهت المناسك ٠

وكان قتال بين جماعة من الأوس فذهب النبي عليه السلام يصلح بينهم وقال لبلال : ان حضرت الصلاة ولم آت فمر أبا بكر فليصل بالناس ٠

وأثبت البخاري عن جبير بن مطعم ان امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع اليه • قالت : أرأيت ان جئت فلم أجدك ••• كأنها تريد الموت • قال : ان لم تجديني فأتي أبا بكر •

وهذه أمارات مشهودة متفق عليها ، وغيرها أمارات شتى بعضها أصرح وبعضها أحوج الى التأويل ، لا ضرورة لاستقصائها لأنها لا تبلغ في الجزم والتوكيد مبلغ ما قدمناه •

واقترنت بتلك الأمارات جميعا أمارات أخرى لا تقل عنها صراحة وتواترا تدل على رغبة قوية في اجتناب كل ما يثير العصبية ، ويلبس الأمر على الجهلاء والمغرضين بين دعوة النبوة وطلب السلطان والاستعلاء •

فلا نحسب ان محمدا عليه السلام دل بعمله وقوله ومضامين رأيه على شيء واضح مطرد كما دل على هذه الرغبة القوية ، ولا ظهر منه الحرص على شيء كما ظهر حرصه على تنزيه النبوة من مطامع السيادة الدنيوية ومفاخر العصبيات •

فأبغض شيء كان الى نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون : ان النبوة تمهيد لدولة هاشمية أو وراثة دنيوية •

ولهذا أثر عنه انه لم يول أحدا من قرابته ولاية أو عمالة في مكة والمدينة أو في غيرهما •

بل لهذا أصهر الى أبي سفيان ، واتخذ معاوية كاتبا للوحي ، وأمر يوم فتح مكة مناديا ينادي في الناس « ••• من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن » ليمحو من نفوس بني أمية حزازة العصبية بينهم وبين بني هاشم ، ولا يدع في سرائرهم مجالا للظن بأنها غلبة أسرة على أسرة ، أو بطن من قريش على سائر بطونها •

وقال عليه السلام : « ان هذا الأمر في قريش لا يعاديهم أحد الا كبه (١) الله على وجهه ما أقاموا الدين » • ولم يقل « في بني هاشم » أو في بني عبد المطلب ، ولو شاء لقال •

---

(١) كبه على وجهه : صرعه •

ولا ريب انه عليه السلام لم يؤثر قريشا بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبني قبيلته وقومه ، ولكنه آثرهم للحكمة السياسية البينة التي لا يسهو عنها الهداة المسؤولون عن مصائر الأمم في عصر من العصور · فقريش هم أصحاب السيادة في مكة وهي كعبة الاسلام وعاصمة الدولة الاسلامية في ذلك الحين · ولن تفلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أول الثائرين عليها والمنكرين لذويها ·

ويغلب على اعتقادنا أنه عليه السلام ترك أمر الخلافة بغير وصية ظاهرة لأنه علم أن الخلافة منتهية الى مثل ما انتهت اليه ، ولا سيما بعد تقديمه أبا بكر للصلاة بالناس ·

ونص على « قريش » ولم يتجاوز ذلك لأنه علم أن قريشا تتفق على مثل ما اتفقت عليه ، وأن الخلاف انما ـ يجيء ـ ان جاء ـ من جانب الأنصار أهل المدينة · فالحاجة ماسة الى هذا التخصيص لدفع الخلاف المنظور ، ومع هذا التخصيص اللازم وصية مكررة باكرام الأنصار أوصى بها المسلمين بعده ، وهي وصية معناها الواضح في هذا المقام أنه عليه السلام كان يترقب أن تؤول الخلافة الى المهاجرين فهم الذين تتجه اليهم الوصية باكرام مثوى اخوانهم الأنصار ، ولولا ذلك لما اتجهت الوصية لفريق منهما دون فريق ·

ونقول ان النبي علم بمصير الخلافة على الوجه الذي صارت اليه ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام ترك هذه المسألة وهو يتوقع فيها الفشل والفتنة ولم يبرم فيها حكما يدفعهما به ما استطاع ·

فاذا انحصرت الخلافة يومئذ في قريش فهي صائرة الى أبي بكر دون غيره ولا حاجة الى تدبير لن يغير مصير الأمور ·

والا فكيف كانت الخلافة صائرة الى غير ما صارت اليه وهي محصورة يومئذ في قريش ؟

والى من كانت تصير ؟

ان الذين تولوها بعد أبي بكر من صحابة النبي هم عمر وعثمان وعلي ومعاوية · فأي هؤلاء كان أظهر حقا وأقرب طريقا وأدنى من الصديق الى اتفاق المسلمين عليه ؟

أهو عمر ؟ لقد كان أصغر من أبي بكر بنحو عشر سنين ، ولم تكن له سابقة في الاسلام وفي صحبة النبي ، ولم تكن ألفة الناس له كألفتهم لأبي بكر ، وليس هو بأقوى عصبة منه بين بطون قريش ، وليس هو بالذي يشغب (١) على أبي بكر ويعصيه لطمع في الخلافة اذا تقدم اليها بل كان هو أول من بايعه وحث الناس على بيعته • وقال له : أنت أفضل مني • فقال أبو بكر : وأنت أقوى مني • فعاد عمر يقول : وان قوتي لك مع فضلك ، وكان هذا فصل الخطاب ومرجع الاختيار الذي لا تفويت فيه لفضل ولا قوة ، ولا تضييع فيه لفرصة أبي بكر التي لا فرصة بعدها • أما عمر فله بعد ذلك فرصته حين يأتي أوانها •

أفكانت تصير اذن الى عثمان بن عفان ؟

ان عثمان رضي الله عنه أسلم على يدي أبي بكر ، وقد كانت معه عصبية بني أمية وهي عصبية قويـة ، ولكن زعامة تلـك العصبية كانت في يد أبي سفيان يومذاك ولا طريق له الى الخلافة وان طمع فيها • وتنزه عثمان مع هذا أن يركن الى تلك العصبية ليزاحم أبا بكر في حق لا ينكره ولا ينفسه عليه •

أفكانت تصير اذن الى علي بن أبي طالب !

انما كانت تصير اليه بحجة بني هاشم وهي الحجة التي اتقاها النبي جهده كما قدمنا ، وكان بنو هاشم مع هذا لا يتفقون على اختيار واحد من رؤسائهم الثلاثة العباس وعلي وأخيه عقيل ، ولم يكن علي بعد هذا وذاك قد جاوز الثلاثين الا بسنوات قلائل ، وهي عقبة من العقبات التي لا يسهل تذليلها في أمة ترعى حـق السن ومكانة الشيوخ الا بوصية ظاهرة من النبي عليه السلام • ولم تكن هناك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كـل سند وثيق •

أفكانت تصير اذن الى معاوية بن أبي سفيان •

ما نحسب أن معاوية نفسه قام بخلده أن يرشح نفسه لخلافة النبي في تلك الآونة • ولو توافرت له السن وتوافرت له الذرائع التي تقربه من ذلك الأمل لآثرت قريش بالمبايعة كل بطن مـن

---

(١) شغب عليه : هيج الشر عليه •

بطونها غير بطن بني أمية ، لأن الخلافة في بني أمية معناها دولة بني أمية ، لاستطاعتهم بالخلافة وقوة العصبية أن يفرضوا دولتهم على سائر البطون وسائر القبائل ... أما الخلافة في بني تيم ، رهط أبي بكر ، فهي خلافة قريش كلها ومعهم جميع المسلمين ، لتعذر قيام الدولة ببطن واحد من البطون الصغيرة واحتياج الحاكم الى اتفاق هذه البطون من حوله . ويقال مثل ذلك في بني عدي رهط عمر ، وفي سائر البطون القرشية ما عدا هاشما وأمية .

فاذا كان انتخاب أبي بكر للخلافة هو رأي قريش الذي لا محيد عنه ، وهو نية النبي التي ظهرت من أعماله واشاراته ، فما الحاجة الى التدبير بين السيدة عائشة وأبيها ، أو بين الرجال الثلاثة أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ؟ ومن أين يأتي تخيل التدبير ولا موجب له من الفروض ولا من الاسناد ؟

ربما كان الدليل الذي هو أقطع من كل دليل على نفي التدبير المزعوم أن نقدر أن التدبير لم يحصل قط فماذا كان يحصل بعد امتناعه ــ أكان يقع في مسألة الخلافة شيء غير الذي وقع ؟ وما هو ؟ وما حيلة التدبير في منعه ؟

فان كان الجواب أن التدبير وترك التدبير يستويان ، وأن الحاجة اليه لا تخطر على بال عاقل ، ففي ذلك غنى عن الأدلة الأخرى التي تنقضه وتلقي به في مراجم الظنون والأوهام .

نظر النبي الى ذلك كله بالبصيرة الثاقبة التي تكشف له ما لا ينكشف لغيره ، فسكت بالقدر اللازم ، وأشار بالقدر اللازم ، وعلم أنه قد أشار بما فيه الكفاية ، وأن ما زاد على ذلك فهو زيادة على الكفاية .

وما نشك لحظة في أنه عليه السلام قد أحاط بكل ما يحاط به في هذه المسألة خلال مرضه وقبل مرضه ، وقد اطمأن الى كل ما يوجب الاطمئنان في تقديره ، وأنه لو رأى حاجة الى المزيد من التصريح بالقول القاطع لصرح وقطع بالقول ، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام يترك الاسلام والمسلمين عرضة للفشل والفتنة ثم لا يدفع ذلك بما في وسعه . فاكتفاؤه بما صنع هو

الدليل على علمه بما سيحدث واستغنائه عن المزيد من التدبير ٠

وقد نظر عليه السلام ـ ولا ريب ـ الى كل ما يستحق النظر في مسألة الخلافة وهو يرشح لها أبا بكر ذلك الترشيح الأبوي الذي يؤنس بالرأي ولا يقحمه على القلوب ٠

نظر الى حق أبي بكر كما نظر الى مصلحة المسلمين ٠

فحق أبي بكر في قيامه مقام النبي ظاهر ما فيه خلاف ، ولا موجب لتخطيه الى غيره على وجه من الوجوه ٠

ومصلحة المسلمين في ولايته راجحة في كل حساب ، لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوج الى عهد يكون امتدادا لعهد النبي حتى يحين وقت التوسع والتصرف ، وأحوج الى ألفة غير مخشية ولا منفوسة (١) تعوضهم من طاعتهم للنبي بتعاونهم على النصيحة والمودة ٠ وكل أولئك ميسور لأبي بكر قبل تيسره لغيره من جلة الصحابة الأقربين ٠ فهو في حرص شديد على الاقتداء بالنبي حرفا حرفا وخطوة خطوة لن يكون عهده الا امتدادا للعهد النبوي حتى تتغير الاحوال فتأذن بالتغيير ، وهو في ألفته واجتماع القلوب اليه خير من يخلف الطاعة بالمودة ويعالج الفرقة والانقسام بالرفق والتؤدة ٠ فان جد ما يدعو الى التصرف أو يدعو الى الشدة فهناك الأعوان المخلصون له وللدين ، وهناك المشيرون الذين يقبلون الرأي على جميع الوجوه : فضله مع قوتهم وقوته مع فضلهم ، نعم العون ونعم الكفيل باجتماع أسباب الحول (٢) والحيلة ، كما ألمع الى ذلك عمر بن الخطاب ٠

ثم حانت الساعة التي تهيأت لها مشيئة القدر وتهيأت لها مشيئة الناس على ذلك النحو المستقيم ٠

فتم في يوم واحد كل ما ينبغي أن يتم في يوم ٠

ولاح للوهلة الأولى أن الخطر عظيم وأنه موشك أن يعصف بكل شيء وأن يخرج على كل سواء ٠

اذ اجتمع الأنصار يتحدثون بحقهم في الخلافة دون المهاجرين، وهمت الفتنة أن تنطلق بغير عنان في طريق لا تعرف عقباه ،

---

(١) لا منفوسة : لا تحاسد فيها ٠

(٢) الحول : القوة والبأس ٠

ولكنها فتنة مكبوحة قدر لها ألا تقوى على الانطلاق من بـاب السقيفة التي نجمت فيها ·

فكان سعد بن عبادة زعيم القوم مريضا لا تؤاتيه في ذلك اليوم حركة النفس التي لا غنى عنها في ذلـك المقـام ، لأنهـا تعدي بالهيبة والثقة من يستمعون اليه · فحملوه من بيته الى السقيفة وهو لا يملك زمام عزمه ولا يقدر على الكلام ، فجعل يخاطبهم بلسان القريبين منه وجعلوا يصغون اليه اصغاءهم الى مريض يشعرون بضعفه لا الى زعيم يشعرون بقوته وبأسه ·

وكان القوم فريقين متنافسين منذ زمن قديم ، وهم الخزرج والأوس وبينهما ملاحاة (١) دائمة تهون معها كل ملاحاة بـين الأنصار والمهاجرين ·

وكانت يقظة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم · فبلغوا السقيفة في ابانها (٢) وعالجوا الأمر حق علاجه ، وقال كل منهم كلمة كانت أنفذ من سهم وأقهر من جيش · قال أبو بكر : « ان هذا الأمر ان تولته الأوس نفسته عليهـم الخزرج وان تولتـه الخزرج نفسته عليهم الأوس ، ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش ··· نحـن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون (٣) بمشورة ولا تقضى دونكم الأمور » وقـال عمر : « ان العرب لا تمتنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولي أمورهـم منهم » · وقال أبو عبيدة : « يا معشر الأنصار ! كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير » ·

ونادى أبو بكر القوم : هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا · فقال عمر وقال أبو عبيدة مثل مقالته : « لا والله ! لا نتولى هذا الأمر عليك · فانك أفضل المهاجرين ، وثاني اثنين اذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا الذي ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك ·

ابسط يدك نبايعك ·

---

(١) الملاحاة : النزاع · (٢) أبان الشيء : أوله أو حينه · (٣) لا تفتاتون : لا يفعل شيء دون أمركم ·

فبايعه زعيم من الأوس ، بشير بن سعد ، وهو يقول : « كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله لهم » وقال النقيب أسيد ابن حضير : « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم نصيبا أبدا فقوموا بايعوه ... » .

وبايع عمر وأبو عبيدة فكأنما بايع المهاجرون معهما ، ولم يبق للخزرج الحاضرين عزم خلاف ، فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطئوا زعيمهم المريض ، وماتت الفتنة في مهدها لأنها ولدت بعلة الموت .

ولدت بعلة الموت فماتت وما اصطدمت بأكثر من ثلاثة رجال، لم يستعدوا لها بأكثر من استعداد الساعة . بل لعلهم أفلحوا في القضاء عليها لأنهم كانوا أولئك الثلاثة بعينهم ولم يكونوا جمعا حاشدا من المهاجرين المناظرين فلاحوا للقوم هداة ينصحون ولم يلوحوا لهم غزاة يقتحمون ، وكان ذلك أدعى أن يستمعوا اليهم كما يستمعون الى الضيف الناصح دون أن تثار فيهم نخوة الغاضب لذماره ، المطروق عليه في عقر داره .

ولو أن سعد بن عبادة كان صحيحا غير مريض ، وكان الأنصار حزبا واحدا غير منقسم ، وكان المهاجرون الثلاثة متخلفين عن الموعد الحاسم ، أو كانوا غير أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ، أو كانوا جمعا كثيرا يحفز العداء والمقاومة ، لجاز أن يتغير مجرى الأمور وأن يكون للتاريخ الاسلامي شأن غير شأنه الذي عرفناه .

ولكننا نخطىء كثيرا اذا نسينا فضل الأنصار أنفسهم فيما صارت اليه الأمور ، فقد كانت لهم فيه مشيئة مستورة ان لم نقل مشيئة ظاهرة .

كانوا على الأرجح يقضون حق المجاملة لسعد بن عبادة ولا ينوون الزيادة أو يجدون في الكفاح لانتزاع الخلافة : كانوا مسلمين قبل كل شيء ولم يكونوا طلاب ملك قبل كل شيء ، وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون جميعا اذ قالوا : ان النبي قد ائتمن أبا بكر على الدين بتقديمه للصلاة فكيف لا يؤتمن على الدنيا ؟ وكانوا يعلمون أن المهاجرين مقدمون في القرآن على

الأنصار : والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان » • فلم يكن ايمانهم بحقهم في الخلافة ايمان من يغضب لفواتها ويستميت في طلبها ، ولم يكن حرصهم على السلطان أشد من حرصهم على الدين ومصلحة المسلمين ، ولم يكن أملهم فيها اذا نازعتهم قريش عليها بالأمل الذي يطغى على كل تفكير ، فما هو الا أن أشار بعضهم الى منازعة المهاجرين حتى قالوا : « منا أمير ومنهم أمير » قبل أن تستفيض بينهم حجج المهاجرين • ثم تمت البيعة فلم يعودوا الى تمحل (١) الأسباب للخروج على صاحب الأمر كما يفعل كل حريص على السلطان لجوج فيه •

فهم ولا ريب أصحاب مشيئة فيما صارت اليه الأمور ، على هذا النحو من المشيئة التي قد يجهلها صاحبها وهي حاضرة •

وهم ولا ريب اخوان يطلبون حقا في الارث المشروع ان ثبت لهم حق فيه ، وليسوا بأعداء ينظرون الى أسلاب العدو ويستحقونها بالغلبة عليها ، كائنة ما كانت ذريعتهم اليها من حق أو باطل •

على أنهم لو كانوا غير ذلك وكان نزاعهم الى السلطان نزاعا طاغيا لا يبالون فيه بالحقوق والحرمات لبطل في هذا النزاع كل تدبير سابق لأبي بكر وصاحبيه ، ولكان مآل الفتنة الى حكم الواقع الذي لا تغني فيه الخطط السابقة ولا العظات البالغة • اذ قصارى التدبير من أبي بكر وصاحبيه أن يجمعوا حولهم كلمة قريش ورؤسائها وبطونها • فأما أن يخضعوا بالتدبير من لا يخضع لغير السيف ، وأن يدفعوا بالاتفاق بينهم ما ليس له دافع ، فذلك هو المحال بعينه ، أو ذلك هو الاتفاق على أناس خارجين من نطاق الاتفاق •

وصفوة القول أن خلافة أبي بكر كانت نتيجة لكل مقدمة سبقتها من فعل الحوادث ، أو من فعل أحد عامد أو غير عامد •

وغير هذه الخلافة ما كان ليكون ، الا الفتنة التي لا يجدي فيها اختيار هذا ولا اختيار ذاك ، ولا يغني فيها تدبير ولا تقدير •

---

(١) تمحل الشيء : احتال في طلبه •

ولسنا نحب أن يفهم من هذا أن أحدا من كبار الصحابة كان يعاف الخلافة ولا يسره أن يختار لهذا المقام العظيم ، وأن يراه الناس أهلا للاضطلاع بعبئه الجسيم • فخلافة النبي شرف لا يأباه أحد يحبه ويعظمه ويتتبع خطاه ، وأقل من هذا المقام الأسنى كان حقيقا عند الصحابة أن يستشرفوا له (١) ، ولا يكتموا طموحهم اليه • جاء أهل نجران الى النبي عليه السلام فقالوا : « ابعث لنا رجلا أمينا فقال : لأبعثن اليكم أمينا حق أمين » فاستشرف لها الناس • فبعث أبا عبيدة بن الجراح •

وروى أبو بكر هذه القصة حيث قال : « قدم الينا وفد نجران فقالوا : يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه • فقال : والذي بعثني بالحق لأرسلن معكم القوي الأمين » فما تعرضت للامارة غيرها • فرفعت رأسي لأريه نفسي ، فقال : قم يا أبا عبيدة •

ولقد ساء أبا بكر بعد مبايعته الأولى أن ينقبض أناس عنه فظهر منه الاستياء حيث قال : « أيها الناس ! ألست أحق الناس بها ؟ ألست أول من أسلم ؟ » •

وغير ذلك ــ أيضا ــ لم يكن ليعقله العقل ولا بالذي يجمل بالكريم ، فكل رجل كريم يسوؤه أن ينقبض أناس عنه وهو جدير منهم بغير الانقباض •

ولكن الغبطة بالخلافة شيء والاحتيال لها بالحيلة والدسيسة شيء آخر ، فهذا الذي ننكره لأننا لم نجد دليلا واحدا عليه ، ووجدنا أدلة كثيرة على نقيضه •

كذلك دبر أبو بكر وأصحابه كل ما يحمد تدبيره بعد قيامه بالخلافة لتوطيد أركانها وحماية الاسلام غوائل عصيانها والتمرد عليها ، وجهدوا أن يفرقوا كل اجتماع يخشون مغبته على وحدة المسلمين • فاقترحوا على العباس بن عبد المطلب أن يجعلوا له نصيبا يكون له ولعقبه من بعده ليمنعوا الاتفاق بينه وبين علي ابن أخيه ، ان سعى اليهما من يسعى الى التأليب والتخريب ، كما هم أبو سفيان أن يفعل باسم البطون القوية في قريش : بني

---

(١) استشرف الشيء : رفع بصره لينظر اليه •

هاشم وبني أمية ، وصنع أبو بكر وأصحابه نظائر ذلك في سبيل الوحدة العربية والجماعة الاسلامية ، ولكن الذي صنعوه هـو التدبير الواجب الذي لا يضير ، وقد يكون في تركه ضير كبير ·

لقد كان أبو بكر الخليفة الاول لأنه كان الصديق الاول ، ولأن شروط الخلافة التي اجتمعـت له لم تجتمـع لأحد غيره ، وليس له من منازع فيها بين أهل عصره ، ولأن المزايا التي قد يرجحه بها أنداده وقرناؤه لا تضيع على الاسلام بولايته عليهم ومعونتهم اياه · فكـان اختياره أصح اختيـار عرف في تاريخ الولاية ، وكانت التوفيقات فيها غنية عن التدبير والتمهيد · فان لج بعض المكابرين مع هذا في دعوى التدبير فأنعم به تدبيرا ينقطع به الخلاف ، ويتم به أصح استخلاف ·

* * *

صفاتـــه

كان أبو بكر في جملة ما وصفوه به أبيض تخالطه صفرة ، وسيما ، غزير شعر الرأس ، خفيف العارضين ، ناتيء الجبهة ، غائر العينين معروق الوجـه ، نحيفـا مسترخـي ازاره عـن حقويه (١) حمش الساقين (٢) ، ممحوص (٣) الفخذين خفيف اللحم في سائر جسمه ٠

وكان أجنأ ـ أي منحني القامة ـ وقيل في وصف آخر : انه حسن القامة لا يلحظ عليه انحناء ، ولعله كـان كذلـك أيام الشباب ، ولم يرد في أخباره وصف قاطع عن الطول والقصر ، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل الى القصر ، ولا سيما أخبار الهجرة مع النبي عليه السلام ٠

فقد جاء في خبر الهجرة أن النبي عليه السلام « كـان على بعير ، وأبو بكر على بعير ، وعامر بن فهيرة على بعير ، فكـان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل على البعير فيتحول عنه الى بعير أبي بكر ، ويتحول أبو بكر الى بعير عامر ويتحول عامر الى بعير رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠ » ٠

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة ٠

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله عليه السلام ٠

وكان رسول الله كما علمنا من وصفه ربعة في الرجال فوق القصير ودون الطويل ، ولم يكن بين الامتلاء ، بل معتدلا الى السمن ولا الى النحافة ، فلو كان أبو بكر رضي الله عنه أطول من الربعة لما كان أخف كثيرا من رسول الله ، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة ، بحيث يظهر الفرق بينه وبينهما في حركة البعير الذي يتعاقبون ركوبه ٠

---

(١) الحقو : موضع شد الازار وهو الخاصرة ٠ (٢) دقيق الساقيـن خلص من الاسترخاء ٠ (٣) ممحوص : شديد الفتل ٠

أما صفاته الخلقية فقد اتفقت فيها أقوال واصفيه ، ودلائل أعماله في الجاهلية والاسلام ، فكان آليفا ودودا حسن المعاشرة ، وكان مطبوعا على أفضل الصفات التي تتألف له الناس فيألفونه ، ومنها التواضع ولين الجانب • فلم يتعال على أحد قط في جاهليته ولا في اسلامه ، وكان في خلافته اظهر تواضعا منه قبل ولايته الخلافة • فاذا مدحه مادح قال : اللهم أنت أعلم مني بنفسي ، واذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ولم يأمر آحدا بمناولته اياه • ويلغ من بغضه الخيلاء أنه كان يبغضها حتى حيث يغتفرها الناس من ربات الحجال • فدخل يوما على عائشة رضي الله عنها وهي تمشي وتنظر الى ذيل ثوبها فقال : يا عائشة ! أما تعلمين أن الله لا ينظر اليك الآن ؟ قالت : ومم ذاك ؟ قال : آما علمت آن العبد اذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة ؟ فلما نزعت تلك الزينة التي اعجبتها فتصدقت بها قال : عسى ذلك يكفر عنك •

ولم يكن تألفه الناس محض مجاملة باللسان مما يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة ، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء ، فكان كما قال ابن الدغنة لقريش ، وقد هم أبو بكر أن يهجر بلده : « أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل (١) ويقري الضيف ويعين على نوائب الحق ؟ » •

فهو ودود كريم لا يضن بماله وجاهه في سبيل الكرم والسخاء•

ومع هذه المودة وهذه الألفة كانت فيه حدة يغالبها ولا يستعصي عليه آن يكبح جماحها • ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس اليه وأصدقهم في وصفه • فقال في خطبة من أوائل خطبه بعد مبايعته : « ••• اعلموا أن لي شيطانا يعتريني فاذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني •• » •

وقال عمر بن الخطاب : « وكنت أداري منه بعض الحد ــ أي الحدة ــ » وذلك حين أعد كلاما يقوله في سقيفة بني ساعدة ، مخافة أن يحتد أبو بكر في ذلك المقام •

---

(١) الكل : اليتيم أو الضعيف •

وسئل عنه ابن عباس فقال : « كان خيرا كله على حدة كانت فيه » ·

الا أنها كانت حدة تنم على سرعة التأثر فيه ، فاذا لم تكن غضبا يغالبه ويكبحه فهو سريـــع التأثر الى الرحمـــة والرفق في جملة أحواله ، يميل الى الحزن والأسى ويعطف على الحزيـــن والأسوان ، أو كان كما وصفته عائشـــة رضي الله عنهـــا : « غزير الدمعة وقيـــذ الجوانح (١) شجي النشيج (٢) » ··· « أسيفا متى يقم مقامــك ــ تخاطــب رسول الله ــ لا يسمـــع الناس » ·

* * *

وكان في جاهليته واسلامه وفورا جميل السمت يغـــار على مروءته ويتجنب ما يريب · فلم يشرب الخمر قط لانها مخلــة بوقار مثله ، وسئل : لم كان يتجنبها في الجاهلية · فقال : « كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي ، فان من شرب الخمر كان مضيعا في عقله ومروءته » ، ومن مروءته أنه كان يتقي كل ما يورده موارد الشبهات · دعاه رجل في الجاهلية ان يستصحبه لحاجـــة يعينه عليها ، فرآه يمر في طريق غير التي يمر منها فسأله : أين تذهب ؟ هذه الطريق ! ·· قال الرجل : ان فيها أناسا نستحي منهم أن نمر عليهم · قال رضي الله عنه : تدعوني الى طريق نستحي منها ؟ ما أنا بالذي أصاحبك ·

وكان لمروءته يتحاشى السقط من الكلام ، فلا يتكلم الا أن يدعوه داع الى قولة خير فيقولها اذن ويصدق في مقاله · ومـــن وصاياه لبعض عماله : « اذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكـــلام ينسي بعضه بعضا » ·

وقد اشتهر بالصدق في الجاهلية والاسلام ، فكان « ضامن » قريش المقبول الضمان · لا يعد أحدا الا وفى وصدق الدائن والمدين · ووكلت اليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئا منها

---

(١) الوقيذ الجوانح : المحزون القلب · (٢) الشجي : الحزين · النشيج : الغصة بالبكاء ، والمعنى انه يغص بالبكاء في حلقه حتى يبدو عليه الحـــزن الشديد ·

الا اطمأن اليه الناس ، فان احتملهـا أحـد غـيره خذلـوه ولم يصدقوه ٠

وما امتحن صدقه بشيء الا كان صدقه أثبت وأقوى ٠ فخطب رسول الله ابنته عائشة حين ذكرتها له خوله بنت حكيم ٠ وكان المطعم بن عدي قد خطبها قبل ذلك لابنه ، فقال أبو بكر لزوجه أم رومان : « ان المطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه والله ما أخلف أبو بكر وعدا قط ٠٠٠ » ثم أتى مطعما وعنده امرأته ، فسأله : ما تقول في أمر هذه الجارية ؟ فأقبل الرجل على امرأته ليسألها : ما تقولين ؟ فأقبلت هي على أبي بكر تقول : لعلنا ان أنكحنا هذا الصبي اليك تصبئه (١) وتدخله في دينك الذي أنت عليه ٠ فلم يجبها أبو بكر وسأل المطعم بن عدي : ما تقول أنت ؟ فكان جوابه : انها تقول ما تسمع ٠

فتحلل أبو بكر عند ذلك من وعده ، ولم يتحلل منه قبل ذلك على ما في نسب الرسول من شرف ، وما في قلبه من اعزاز لـه يفوق كل اعزاز ٠

وكانت شجاعته كفاءة صدقه ووفائه بوعده : سواء منهـا شجاعة الرأي وشجاعة القتال ٠ فلما أسلم لم يبال أن يعلـن اسلامه وأن يجهر بصلاته ودعائه ، يصيبه في ذلك ما يصيب ، ولما وجب القتال كان هو أقرب المقاتلين الى رسول الله في كل غزوة وكل مأزق من مآزق الجلاد (٢) ، وانهزم كثير من الشجعان في بعض الملاحم الحازبة ، ولم تذكر له قط هزيمة في ساعة مـن ساعات الشدة ، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات الا كان هو أول الثابتين ٠ ولم تكن وقعة قط أشد على المسلمين من وقعتي أحد وحنين ، ولى فيهما من ولى واستشهد من استشهد وتردد في صفوف العسكرين أن الرسول عليه السلام كان بين المستشهدين ٠ فذعر الضعيف وقال القوي : ما تصنعون بالحياة بعده ؟ فموتوا على ما مات عليه رسول الله ٠٠٠

ففي وقعة أحد ــ أشـد هاتين الوقعتين ــ كـان أبو بكر في

---

(١) تصبئه : تخرجه من دينه الى دين آخر ٠

(٢) الجلاد : التضارب بالسيف ٠

طليعة الثابتين ، ونظر الى حلقـة من درع قد نشبـت في جبين صديقه وصفيه ونبيه فشغله أن يصاب هـذا المصاب ، وانكب عليها لينزعها ، لولا أن أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقنه هـو الى نزعها ، فجذبها بثنيته (٢) جذبا رفيقا حتى نزعهـا وسقطـت ثنيته ·

وعلى هذا الحظ الوافر من المزايا الخلقية كان لـه قسط محمود من المزايا العقلية التي يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه ، فقيل فيه وفي صاحبـه أبي عبيدة : انهمـا « داهيتـا قريش » · وأثر عنه أنه كان أسرع الناس الى الفطنة لما يوحي به النبي عليه السلام بالتلميح دون التصريح · ومما جـاء في الحديث الشريف عن علمه وفطنته أنه عليه السلام قال :

« كأني أعطيت عسا (٢) مملوءا لبنـا فشربت منـه حتـى ا تلأت ، فرأيتها تجري في عروقي بين الجلد واللحم ، ففضلت ـها فضلة فأعطيتها أبا بكر · قالوا : يا رسول الله ! هذا علم اعطاكه الله ، حتى اذا امتلأت فضلت فضلة أعطيتها أبا بكر · قال صلى الله عليه وسلم : قد أصبتم » ·

وكان لأبي بكر حظ وافر من الملكة الروحية الى جانب مـا عنده من هذه الملكة الذهنية ، وتلك الملكة الخلقية ، ونعنـي بالملكة الروحية ما نسميه اليوم بيقظة الضمير ·

ومناط الضمير أن يرعى الانسان حق غيره ، وأن يحسن ولا يسيء ، وهي خصلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر ، ويدعو الى اتباع الحق واجتناب الباطل · فلما جاء هذا الدين بنى منه على أساس قديم ، وبلغت به نفسه قصارى ما تبلغه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس : ومن كلف (٣) بالخيرات وسخط على الشرور ·

قال ربيعة الأسلمي : « جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال

---

(١) الثنية : أسنان مقدم الفم ·
(٢) العس : الاناء الكبير أو القدح الكبير ·
(٣) الكلف : المحبة الشديدة ·

لي كلمة كرهتها وندم ، فقال : يا ربيعة ! رد علي مثلها حتى يكون قصاصا · قلت : لا أفعل ! قال : لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم · فقلت : ما أنا بفاعل · فانطلق أبو بكر وجاء أناس من أسلم فقالوا لي : رحم الله أبا بكر ، في أي شيء يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال ؟ فقلت : أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثاني اثنين ، وهذا ذو شيبة في الاسلام · اياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه ، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة · وانطلق أبو بكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحدثه الحديث كما كان · فرفع الي رأسه فقال : يا ربيعة ! مالك والصديق ؟ فقلت يا رسول الله : كان كذا وكذا ، فقال لي كلمة كرهتها ، فقال لي قل كما قلت حتى يكون قصاصا فأبيت · فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أجل لا ترد عليه ، ولكن قل : قد غفر الله لك يا أبا بكر ·· » ·

وهو يكره أن يسيء لأنه يكره أن يساء ، ويعلم ما توقعه الاساءة في النفس من ألم يغلبها على الحلم والأناة حتى في المحضر الذي تراض فيه على غاية الحلم وغاية الأناة ·

بينما رسول الله جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فآذاه ، فصمت عنه · ثم آذاه الثانية فصمت عنه · ثم آذاه الثالثة فانتصر منه · فقام رسول الله حين انتصر أبو بكر · فقال : أوجدت علي يا رسول الله ؟ فقال رسول الله : نزل ملك من السماء يكذبه بما قال ، فلما انتصرت وقع الشيطان ·

ولا شك أنه درس من الدروس النبوية يداوي به نوازع الحدة في صاحبه الأمين ، لانه كان يهيئه لأمر عظيم · أمر ينبغي لمن تولاه أن تؤلمه اساءته الى الناس فوق ألمه لاساءة الناس اليه ·

ومن يقظة الضمير فيه أنه لم يطق أن تستقر في جوفه لقمة يشك في مأتاها : فكان له مملوك يغل عليه ، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة · قال المملوك : مالك كنت تسألني كل ليلة ولم تسألني الليلة ؟ قال : حملني على ذلك الجوع ··· من أين جئت

بهذا ؟ فأنبأه المملوك أنه مر بقوم كان يرقي لهم في الجاهلية فوعدوه ، فلما أن كان ذلك اليوم مر بهم فاذا عرس لهم فأعطوه ذلك الطعام !

قال الصديق : ان كدت لتهلكني ٠

وأدخل يده في حلقه فجعل يتقيأ ــ وجعلت اللقمة لا تخرج ــ فقيل له : ان هذه لا تخرج الا بالماء ٠٠٠

فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها ٠

قيل له : يرحمك الله ! كل هذا من أجل لقمة ؟ فقال : لو لم تخرج الا مع نفسي لأخرجتها ٠

وما نحسب أن يوما مر به دون أن يطيع فيه داعي الاحسان ، وسليقة البر والمودة سئل عنها أو لم يسأل ٠

فكان من عادة النبي عليه السلام أن يسأل أصحابه حينا بعد حين عما ابتدروه من الخيرات فلا يكتموه شيئا لأنه يسأل ويريد أن يجاب ، ليتبع جوابهم عظة من العظات ، أو يعقبه بحديث يؤثرونه عنه ٠

صلى النبي ذات صباح فلما قضى صلاته سأل : أيكم أصبح اليوم صائما ؟

قال عمر : أما أنا يا رسول الله فقد بت لا أحدث نفسي بالصوم ، وأصبحت مفطرا ٠

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، بت الليلة وأنا أحدث نفسي بالصوم ، فأصبحت صائما ٠

ثم سأل النبي : أيكم عاد اليوم مريضا ؟

قال عمر : انما صلينا الساعة ولم نبرح ، فكيف نعود المريض ؟

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ٠ أخبروني أن أخي عبد الرحمن بن عوف مريض وجع ، فجعلت طريقي عليه ، فسألت عنه ، ثم أتيت المسجد ٠

ثم قال النبي : فأيكم تصدق اليوم بصدقة ؟

قال عمر : يا رسول الله ٠ ما برحنا معك مذ صلينا فكيف نتصدق !

وقال أبو بكر : أنا يا رسول الله ، دخلت المسجد ، فاذا سائل يسأل وابن لعبد الرحمن بن أبي بكر معه كسرة خبز ، فأخذتها فأعطيتها السائل ·

فقال النبي : فأبشر بالجنة · أبشر بالجنة !

لا جرم يقول عمر : ما سابقت أبا بكر الى خير قط الا سبقني اليه ·

ولا جرم يقول علي : هو السباق · والذي نفسي بيده ما استبقنا الى خير قط الا سبقنا اليه أبو بكر ·

★ ★ ★

لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفناه من أساليب العصر فنراها على وفاق لحقائق تلك الأوصاف ودلالاتها ، وذلك أبين البينات عن صدق ما وصفوه به في الجاهلية أو الاسلام ·

فمن جملة الملامح والسمات التي وصف بها يتبين لنا أنه كان من أصحاب المزاج العصبي الناشئين في وراثة كريمة ، فهو عصبي كريم النزعات والطوايا ·

ولا يندر في أصحاب هذا المزاج أن يتميزوا بحدة الذكاء وسرعة التأثر والطموح الى المثل العليا والحماسة لما يعتقدونه ، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه ، والتقدم في العقائد والدعوات ·

بل هذا هو الغالب فيهم ، كما نشاهد اليوم في كل دعوة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، لن تخلو من اناس في مزاج أبي بكر وخلائقه الجسدية والنفسية ، ينصرونها ويتشبثون (١) بها ويؤمنون بدعاتها ولا ينكصون (٢) عن سبيلهم أو سبيلها ·

واذا كان الرجل من بيت من بيوت الشرف والوجاهة فشأنه ـ اذ يكون على هذا المزاج ـ أن يعتصم (٣) بالوقار ودواعيه ، وأن يستزيد من خلائق الصدق والمروءة التي ركبت فيه ·

ولم يكن أبو بكر على علمنا صاحب « الشخصية الباطشة »

---

(١) يتشبثون : يتعلقون · (٢) ينكصون : يرجعون · (٣) يعتصم به : يلتجىء اليه ·

التي تروع الناظر اليها لأول وهلة ٠
ولم تكن سيادة بيته سيادة جبارين يملكــون الناس بالبأس والسطوة ٠
فسبيله اذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بهما كرامة الشرف الذي ينتمي اليه ، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما في التمكين ويملي لهما في الثبات والرسوخ ، وأن يتجنب فلتات الطبع واللسان ويتنزه عن كل مخل بالوقار مزر بالصيان ، لأن وقاره وصيانه هما الحجاز (١) القائم بينه وبين كل مهانة واستخفاف ، ولو كان باطش المظهر أو باطش السيادة لقد يستغني عنهما بعض الاستغناء في بعض الأحيان ٠ أما وهو بعيد من البطش في مظهره وسيادته فليس من شأنه أن يغفل عن سمت (٢) الوقار والمروءة طرفة عين ٠

وقد عرف الصديق بالحدة وهي أيضا من خلائق هذا المزاج التي يغالبها من يحرصون على وقارهم ومروءتهم أن يستهدفــا لجرائر الحدة أو يندفعا في غير عمل حميد ٠
الا أن يمس الرجل فيما هو من أخص الخصائص التي يقوم عليها مزاجه وتستقيم عليها عاداته وسماته فعندئذ تعسر المغالبة وتبرز الحدة من مكمنها ، وهي على حق اذن في بروزها ٠
لهذا نرجع الى حوادث أبي بكر في الحدة والصرامة على خلاف عادته من الرحمة والألفة ، فاذا هي كلهــا ممــا يمس الصدق والتصديق أو يمس الايمان ، أو يجري مجرى الاستهزاء الذي يمس الوقار ٠
بلغ أقصى ما بلغ من غضب وحدة في عقاب الفجاءة بن اياس ابن عبد ياليل ٠ وبقي طوال حياته يندم على حدته في ذلــك العقاب ٠٠
وماذا صنع الفجاءة حتى هاج منه تلك الحدة التي يغالبها أقوى مغالبة ؟
أثاره في مكمن الثورة فيه ٠٠
كذبه الأمانة ، وخدعه وخدع المسلمين ، وقتل من قتل مــن

(١) الحجاز : الحاجز ٠ (٢) السمت : الطريق ٠

الآمنين ، وقلما غضب انسان كما يغضب الصادق لصدقه المخدوع ، ولا سيما الخديعة التي فيها غدر وسفك دماء ٠

جاءه يطلب سلاحا ليحارب به المرتدين ، فأخذ السلاح وحارب به المسلمين الآمنين ، وعاث في الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء ، فلما وقع في الأسر لم يجزئه (١) عنده الا أن يقذف به في النار ٠

وجاء له رجل من أحبار اليهود اسمه فنحاص في الآية : « من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » فقال فنحاص مستهزئا بالله والنبي : « لو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ٠ ينهاكم عن الربا ويعطيناه ! » ٠

هذا هو الاستهزاء ٠

وهذا هو المساس بالايمان ٠

وكلاهما لا يطيقه الرجل المؤمن الوقور وتغلبه فيه الحدة ان هو غلبها في غير ذلك من الأمور ٠

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفا مؤلفا لقومه ، محبا محبوبا فيمن حوله ، رحيما بالغرباء فضلا عن الأقربين وفضلا عن الأبناء ، الا أن هذا الرجل الأليف نهض الى مبارزة ابنه ودعا عليه بالهلاك حين شهد الحرب مع المشركين ، ورأى البر به ــ غاية البر ــ أن ينهض هو لمبارزته ولا يدعه لأحد غيره من المسلمين ٠

كان ذلك يوم بدر ، وكان ابنه عبد الرحمن من أشجع الشجعان بين العرب ، ومن أنفذ الرماة سهما في قريش ٠ فتقدم الصفوف يدعو الى البراز ، وقام أبوه يجيب دعوته ، لولا أن استبقاه النبي عليه السلام ، وهو يقول له : متعني بنفسك ٠

ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه : لقد أهدفت لي يوم بدر فضفت عنك ــ أي عدلت عنك ــ ولم أقتلك ، فقال أبوه : لكنك لو أهدفت لي لم أضف عنك ٠

وهكذا نعلم أين تبدر الحدة وأين تبدر الصرامة من خليقة أبي بكر المسالم الوديع ، فحيثما روى راو انه احتد أو اشتد

---

(١) لم يجزئه : لم يكفه ٠

فلنعلم عن يقين ان في الأمر شيئا يمس التصديق والايمان ، أو يمس المروءة والوقار ، فلا تأتي الحدة أو الشدة يومئذ في غير موضعها من الطبيعة التي ولد بها ومرن عليها ٠

رجل له خصائص المزاج العصبي في البنية الدقيقة ٠
ورجل من عنصر كريم وأرومة طيبة ٠
ورجل له قدم في السيادة واعتصام بالوقار والمروءة ٠

فكل ما روي عنه فهو موافق لهذه الخصال ، منتظم في هذه الخصائص ، معقول في هذا التركيب في الخلق والخليقة ، وهو من ثم دليل على صحة الوصف وصحة السيرة على الاجمال ٠

ولن يكون هذا الرجل على هذا التكوين الا كما وصفوه ونقلوا عنه : حديد الطبع ، مستمسك الخلق ، سريع التأثر ، قوي العاطفة ، محبا للاعتقاد ، حمسا في اعتقاده ، صادقا في وعده ، كما نستطيع أن نعرف ممن طبعوا على هذا المزاج ونراهم بيننا رأي العين ، أو نعرفهم على السماع معرفة اليقين ٠

ونحن فيما نتوخاه من المضاهاة بين أوصاف السابقين وأوصافنا نحن المعاصرين انما نريد أن نفضي الى المقياس الصحيح للتصديق أو التكذيب ، والمحك الصالح للتشكيك أو التغليب ٠ فاذا كانت الأوصاف التي تقرؤها مطابقة للأوصاف التي نعقلها والتي نعهدها فذلك هو برهان الصحة في كل مقياس ٠

وانه لمن واجبنا في عصرنا هذا أن نقضي على آفة العصر التي أوشكت أن تغلب فيه على كل آفة ، وهي الظن الشائع بين المتفيهقين والمتهجمين ان البراعة كل البراعة في التكذيب ، وان كل الجهالة في التصديق ، وليست الجهالة كلها في الحقيقة هنا ، ولا البراعة كلها في الحقيقة هناك ٠٠

فكثيرا ما تكون الغفلة في التكذيب أعظم من الغفلة في التصديق ، وكثيرا ما يكون بخس الشيء الثمين أدل على الغباء وأضيع للمنفعة من اغلاء الشيء البخس ، في تسويم التجارة أو تسويم الضمائر والعقول ٠

خذ مثلا لذلك حسنات أبي بكر اليومية التي سأله عنها

النبي عليه السلام ، فاتفق في يوم سؤاله عنها انه كان قد أهداها جميعا على وجه من الوجوه ··

تلمح على وجه المتفيهق (١) المتشكك مسحة التردد وهو يتابع ذلك الخبر كأنه سما لا يجوز ولا يتكرر على هذا المنوال ·

فاذا سألته : لم التردد وفي وسعك أن تبلغ بالخبر الى مقطع اليقين ؟ لم تقف هنا ولا تتابع الطريق الى منتهاه ؟ انك لتعلم اذن ان التردد سخف حين يكون اليقين منك على مد اليدين تتناوله ان شئت متى مددتهما اليه ··

ماذا يكون ان صدقنا الخبر ؟

وماذا يكون ان كذبناه ؟

ان صدقنا الخبر فكل ما هنالك ان اماما في الدين مطبوعا على الكرم والكرامة قد جرى على سنة نبيه وهاديه ، فأصبح صائما وعاد مريضا وتصدق على فقير بكسرة خبز وجدها في يد حفيده ·

وليس هذا بممتنع ، بل هذا أقرب الأشياء أن يقع ، ولا سيما اذا أضفناه الى جملة أخبار أبي بكر من احسانه في الجاهلية والاسلام ، ومن انفاقه المال كله في سبيل الخير حتى مات وهو فقير ·

فان كذبنا الخبر فماذا يتقاضانا تكذيبه من جهد للعقل واعتساف للتفكير والتخمين ؟

ان كذبناه وجب أن نعتقد ان أبا بكر رضي الله عنه قد أجاب النبي عليه السلام بغير الحق ، وانه يتجافى صدق المقال في أقمن (٢) المواضع بصدق المقال ، فلو أجاز أن يكذب على كل انسان لما جاز أن يكذب على الرجل الذي صدقه ، وخاطر بالمال والبنين والحياة في سبيل تصديقه · فمن الذي يقبل هذا الفرض ولا يرى ان كل فرض دونه أدنى الى القبول ؟

ومن الذي يعقل ثم يخيل اليه ان العقل يميل به الى هذا التكذيب ولا يميل به الى ذلك التصديق ؟

ونقول : ان هذا جائز لنتمادى مع التفيهق (٣) الى أقصى

---

(١) المتفيهق : اسم الفاعل من تفيهق أي توسع في الكلام ·

(٢) أقمن : أجدر · (٣) التفيهق : التوسع في الكلام ·

مداه فما الذي يتقاضانا جوازه مرة أخرى من جهد واعتساف ؟

يتقاضانا أن نقبل شيئا يقرب من المستحيل ·

ان الرجل الذي يجترىء على الكذب في هذا المقام لا ينطبع على الصدق ، ولا يخفى كذبه على الناس ، فكيف به وهو مشهور بالصدق في كل ما قال ، والوفاء بكل ما وعد ؟ وكيف بـه وهو مشهور بالصـدق في شؤون الضمان والمغـارم ، وهي شؤون لا يخفى التدليس فيها الى زمن طويـل ؟ وكيف به وهـو مشهور بالصدق قبل أن يدين بالدين الذي يحضه عليه ؟

أيجوز أن أكذب الكاذبين ، بأمر الدين وبغير أمر الديـن ، يشتهر بأنه أصدق الصادقين ؟

تصديق هذا غفلة أدعى الى السخرية من كل غفلة ! ولا سيما اذا لجأ الانسان اليها فرارا من القول بأن اماما شبيها بالأنبياء يصوم أيامه ويعود مرضاه ويعطي مسكينا كسرة من الخبز ، وهو قد أعطى الآلوف وأنقذ المعسرين وضمن من ليس له ضمان ·

وعلى هذا النحو نتوخى التصحيح والترجيح فيما نأخذ به من أوصاف هؤلاء العظماء · أقـرب المقاييس اليـنـا أن يكون تكذيب الوصف أصعب من تصديقه في تقدير العقل والبديهة ، وفيما نعهده اليوم من حقائق هذه الأوصاف ·

وكذلك أوصاف الصديق كما نقلها الناقلون وكما يفهمها اليوم الفاهمون،فان الأقدمين ذكروا أوصافا متفرقة لم يقصدوا أن نجمعها نحن ، ولا قصدوا بعد جمعها أن نعرضها على علم النفس ووقائع الحياة ، كما وضحت لنا بمصباح العلم الحديث ·

ولكننا جمعنا تلك الأوصاف وعرضناهـا على علم النفس فوجدنا بينها ذلك التناسب الـذي يقضي بتصديقهـا ، وينفي الظنة عن استقامتها في جملتها ·

فأبو بكر كما وصفوه رجل لا محالة من أصلاء المزاج العصبي النابتين في منبت الشرف والمروءة ، وقد قالوا : انه كان يجـود بماله ، ومثل هذا الرجل خليق أن يجود بمالـه ، وقالوا : انه

يحتد ويعطف ، ومثل هذا الرجل معهود في حدته وعطفه ، وقالوا : انه يروض نفسه على السمت (١) والكرم ، ومثل هذا الرجل لا يستغني عن هذه الرياضة ولا يعجز عنها ، وقالوا: انه يشتد في اعتقاده ، وليس فيما شهدناه وخبرناه أشد من اعتقاد مثله ٠

قالوا ذلك فلم يقولوا عجبا : ولم يقل أحد ما ينقضه وينفيه وله حجة فيه ٠

فاذا كانت للعقل أمانة فالأمانة في تقرير هذه الأوصاف كما فهمناها بالاستقراء وكما رواها الرواة في مجمل الأنباء ، واذا كانت للعقل مهانة فمهانة العقل أن نعطله عن فهم حقيقة ماثلة ، لغير شيء من الأشياء ٠

● ❋ ●

(١) السمت : الاعتدال والوقار ٠

مفتـاح شخصيتـه

كان أبو بكر كما رأينا رجـلا عصبي المزاج دقيق البنية ، خفيف اللحم صغير التركيب ٠

تكوين يغلب على أصحابه أحد أمرين : ان كانوا من كرام النحيزة (١) فهم مطبوعون على الاعجاب بالبطولة ، والايمـان بالأبطال ٠

وان كانـوا من لئام النحيـزة فهم مطبوعـون على الحسد والكيد ، وهما ضرب من الاعجاب المعكوس يؤدي اليه انعكاس الطبيعة ، والاحساس بالعظمة في غير معاطفة بينهم وبينها ولا ارتياح اليها ٠

فالحسد هو اعجاب اللئيم عند شعوره بالعظمة ، أو هو التحية التي يؤديهـا اللئيـم الى العظمـة حسبمـا عنـده مـن التواء وارتكاس (٢) ٠

ولهذا يصح أن يقال : ان أصحاب البنية الدقيقة والمـزاج العصبي مطبوعون على الشعور بالعظمة على حال من الأحوال ، فان كانوا اكراما شعروا بها مغتبطين مؤيدين ، وان كانوا لئاما شعروا بها محنقين مثبطين (٣) ، ويندر فيهم جـدا من يشذ عن هذه أو تلك من الخصال ٠

ولقد كان أبو بكر رجلا كريما أليفا من أهل الخير والمودة ، فلا جرم كان الاعجاب بالبطولة طبعا متأصلا فيه ، مقرونا بكل ما في الاعجاب من حب وثقة وايمان ، ولا جرم كان هذا الاعجاب « مفتاحا لشخصيته » مفسرا لكل ما يلتبس من أعماله ، مميـزا لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات ٠

قلنا في كتابنا عن « عبقرية عمر » : ان مفتاح الشخصيـة

---

(١) النحيزة : الطبيعة ٠ (٢) ارتكس : وقع في أمر ٠

(٣) مثبطين : اسم الفاعل من ثبطه عن الامر أي عوقه وشغله عنه ٠

« هو الاداة الصغيرة التي تفتح لنـا أبوابها ، وتنفذ بنـا وراء أسوارها وجدرانها ، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابـه والأغراض • فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التي قد تحملها في أصغر جيب ، فاذا عالجته بها فلا حصن ولا اغلاق » •

وقلنا : « وليس مفتـاح البيت وصفـا ولا تمثيـلا لشكله واتساعه ، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها ، ولكنه أداة تنفذ بـك الى دخائلها ، ولا تزيد » •

فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المتناول وهو هذا المفتاح، مفتاح الاعجاب بالبطولة •

وهذا الاعجاب بالبطولة هو الوسم (١) الذي يتسم (٢) بـه كل عمل من أعماله وكل نية من نياته ، وهو السر الـذي نراه كامنا في كل رأي يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه •

والاعجاب بالبطولة في التاريخ الانساني شيء عظيم ، ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الانسان أشرف من منزلة الاعجاب بها والركون اليها • لأن الفضيلتين معا لازمتان جنبا الى جنب في كل أمر جليل تم في تاريـخ الانسان ، وكل طـور من أطوار التقدم ارتقى اليه •

وليقل أصحاب التحليل العلمي ما يشاءون •

فشاءوا أو لم يشاءوا ، وأحبوا أو لم يحبوا ، لقـد تم بغير التحليل العلمي وبغير القياس المنطقي كثير من العظائم في تاريخ الانسان ، ولم يتم قط ــ ولن يتم فيما نرى ــ أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الاعجاب بالأبطال •

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجـارب العلمية • فالرجل الذي ينهض له البرهان النفساني على الثقة ببطل من الأبطال فيثق به ويعينه على عمله ليس بالرجل الذاهب على غير هدى أو الآخذ بغير دليل • كلا • فعمله ونتيجة عملـه كلاهما برهان يغنيه عن مصنع التحليـل وعن قضايـا المنطق ،

---

(١) الوسم : العلامة • (٢) اتسم : جعل لنفسه علامة يعرف بها •

ويغني العالم كذلك عنهمـا اذا نظرنا الى العمل ثـم نظرنا الى النتيجة ، ونظرنا قبل هذا وبعد هذا الى طبائع الانسان

خذ لذلك مثلا حديث الأعاجيب التي سمعها أبو بكر في أيام الدعوة المحمدية فصدقها لأنه يصدق صاحبها ويركن اليه ٠

هبه قد ثاب الى معمل التحليل فقال له المعمل انه لم يسمـع بأمثال هذه الأعاجيب ، وليس لديه مسبار (١) لها يصلح للتأييد أو التفنيد ٠

وهبه قد ثاب الى قضايا المنطق فقالت له : انها لا تعرف هذه الأقيسة ولا هذه المقدمات ولا هذه البراهين ٠

وهبه قعد في مكانه بعد هـذا وذاك ، لأن معمـل التحليل لا ينشط به الى الحركة في هذا الطريـق ، ولأن قضايـا المنطق لا تزجيه (٢) الى الجهاد في هذا الميدان ـ أفكاسب هو اذن ؟ أفعاقل هو اذن ؟ أفحق ما انتهى اليه وما انتهت اليه الجزيرة العربية من جراء سكونه واحجامه ؟

ان الجزيرة العربية لا تربح شيئا بذلك التمحيص المزعوم ، وان العالم الانساني لا يزيد عقلا ولا علما ولا تحليلا ولا قضايا منطق بذلك الاحجام الذي استقر عليه ٠ وان أبا بكر لن يكون خيرا من أبي بكر ، والدنيا لن تكون خيرا من الدنيا ، والتفكير لن يكون خـيرا من التفكير ، بـل كل من أولئـك فاقد وخاسر ومنقوص ٠

وقصارى ما في الأمر ان رجلا شك فلم يعمل شيئا ، ولم يدر أحد بأنه شك ولا بأنه لم يعمل ، ولم ينتفع عقل الانسان بمـا كان ٠

أفيفهم فاهم من هذا اننا نقول : ان العمل على خطأ خير من الشك على صواب ؟

كلا ! ٠٠ ليس هذا ما نحن مضطرون الى قوله بضرورة من الضرورات ٠

وانما نقول : ان الشك اذن هو الخطأ ، وان برهان خطئـه

(١) مسبار : الوسيلة التي يمتحن بها ٠ (٢) لا تزجيه : لا تسوقـه أو لا تدفعه ٠

نفساني يقام له وزنه كما يقام الوزن للتحليل العلمي والقضايا المنطقية ، وانما الخطأ أن تحوج البطولة الى الدخول في المعمل لتثبت لك قدرها ، وتثبت لك حقها في الاعجاب ، وحقها في العمل ، وحقها في تحويل تاريخ الانسان ثم تثبت لك قدرتها عليه !

ليس المعمل محل هذا ٠

محل هذا نفس الانسان ٠

وساءت الدنيا ان كانت نفس الانسان لا تغنيه في تقويم النفوس ، ولا سيما أعظم النفوس ٠

أفلا يروعني البطل الا خلال الأنابيق (١) والأنابيب ؟

أفلا تملكني نخوة الاعجاب الا بوثيقة من ايساغوجي (٢) ؟

أفيروقني الطائر المنطلق فأعلم لم يروقني ، ويتراءى لي الروح العظيم فأقول : مكانك حتى أرجع الى مائدة التشريح أو الى قارورة الكيمياء ؟!

ما قال ذلك قائل قط أمام روح عظيم ٠

والسبب واضح مستقيم ٠٠

السبب ان الروح العظيم كان قبل أن تكون مائدة تشريح وقارورة كيمياء ، وان الانسانية ألهمت خيرا ألا تؤجل الاعجاب بكل روح عظيم الى أن يظهر المشرحون والمحللون ٠

ليظهروا « على مهلهم » ولتأخذ العظمة الروحية حقها من الاعجاب قبل اذنهم ، فلا مناقضة للعلم ولا للمنطق في ذلك ٠ انما المناقضة أن نعلق دوافع النفوس وبواعث الفطرة على شيء لا تتعلق به ، ولا تتوقف عليه ، ولا نخطىء الواقع ثم نخطىء الواقع الصالح ولا سند لنا أوثق من الواقع على كل حال ، ولا شفاعة أكرم من شفاعة الواقع الصالح في كل مآل ٠

أفيقولون ان البديهة قد تخطىء في الاعجاب ؟

قد تخطىء ولا جدال ٠٠

---

(١) أنابيق : جمع انبيق وهو اناء للتقطير يستعمله الكيميائيون ٠

(٢) ايساغوجي : كتاب في الفلسفة ألفه يورفيريوس تلميذ أفلاطون ٠

ولكن كذلك يخطيء العقل ، وكذلك تخطيء التجربة ، وكذلك تخطيء العلوم وتمضي في خطئها مئات السنين • ولم يقل أحد ان قبولها للخطأ ينفي قبولها للصواب ، ولا نسي أحد انها اذا أخطأت مرة فلها امتحان من العواقب يأبى على الخطأ أن يدوم •

على ان تمحيص القضايا المنطقية او العلمية شيء وتمحيص الشمائل النفسية شيء آخر • وربما كانت وسائل الصديق أقل من وسائل المحللين والمشرحين في العصر الحاضر في باب القضايا المنطقية أو العلمية • أما في باب الشمائل النفسية فوسائله ليست بأقل من وسائلهم بحال ، وقدرته على أن يحس من حوله عظمة النفس الانسانية ليست بأقل من قدرة أحد من المحللين والمشرحين •

وهو قد قال : هذه نفس عظيمة لا شك في عظمتها ، فالخير في متابعتها ، ان لم يكن بد من افتراق الطريق بينها وبين أعدائها •

وهو فيما قال قد أصاب •

أصاب منطقا وأصاب علما وأصاب حسا وأصاب بكل مقياس من مقاييس الصواب •

هو فيما قال أصوب ممن يخالفه رأيا ، ولو استند الى كل حجة من حجج التحليل والتشريح •

وهاديه فيما اهتدى اليه هو اعجابه بالبطولة ••

وهو اعجابه بالبطولة التي تستحق الاعجاب ، لأن الاعجاب طبقات تتفاوت ، كما ان البطولة نفسها طبقات تتفاوت • وقد كان هو من طبقات هذا الاعجاب في أرفع مكان ••

لأنه لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العتاة المتجبرين ، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء ، ولم يعجب ببطل تروعه منه جلبة الصيت الفارغ والمواكب الجوفاء ، ولم يعجب ببطل يزدهي بالوفر والثروة أو بالعصبة أولي القوة •

لا • لم يكن شيء من هذا هو الذي راعه من بطولة محمد عليه السلام ، لأن محمدا عليه السلام لم يكن ذا سطوة ، بل

كان عرضة للأذى من المسلطين عليـه ، ولم يكن مـن أصحاب الزخرف والخيلاء بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء • ولم يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال يضل به من يصل اليه ، بل كان وحيدا يطرده الأكثرون ، فقيرا يغنيه الموسرون ، وأولهم أول صديقيه والمقلبين عليه •

انما البطولة التي أعجب بها أبو بكر هي البطولة التي ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس الانسانية : هي بطولة الحق ، وبطولة الخير ، وبطولة الاستقامة ، وهي بعد هذا ، وفوق هذا ، وفوق الفداء ـ يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه مـن عنت الأقوياء والجهلاء •

تلك هي بطولة محمد •

وذلك هو اعجاب الصديق • خير لبني آدم أن يبقى لهم هذا الاعجاب من أن يزول ويبقى بعده كل شيء ، وأي شيء !

* ★ *

ولقد أجدى ذلك الخلـق الكريم أكبر جدواه لأنه تهيأ لـه بسليقته ونشأته وتوشج (١) تركيبه عليه •

فظهر منه في ايمان القلب ، وروية الفكر ، وفي سياستـه العامة ، وفي سياسته الخاصة ، وما تشتمل عليه من أدب وسلوك وعلاقة بالناس •

أحاط به أناس من المشركين يتهكمون به ساخرين عابثين : هل لك الى صاحبك ؟ انه يزعم أنه أسري به الليلـة الى بيـت المقدس !

وكان أناس قد ارتدوا بعد اسلام لما سمعوا بحديث الاسراء ولم يتبينوه ، فأما أبو بكر فما زاد على أن قال : أو قد قـال ذلك ؟ لئن قال ذلك لقد صدق !

فغاظهم منه أنهم لم يبلغوا منه موقع التشكيك فيما أربى (٢) عندهم على حدود التصديق ، وعادوا يسألونه : أتصدق أنـه ذهب الليلة الى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح ؟

---

(١) توشج : اشتبك •

(٢) أربى : زاد ، أخذ أكثر مما أعطى •

قال : نعم ! اني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء في غدوة أو روحة • ثم ذهب الى النبي عليه السلام فطفق يسمع منه ويصدقه ويقول : أشهد أنك لرسول الله •

وهذا هو البرهان النفساني كما دعوناه ، وهو برهان لا خلل فيه من وجهته التي يستقيم عليها ، وان لم يكن هو البرهان الذي تعوده المناطقة والعلماء •

وهنا موضع صالح للتفرقة بين هذه البراهين في ظواهرها ، وللتوفيق بينها فيما تنتهي اليه من نشدان الحقيقة الكبرى :

اني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء •

وفحوى ذلك : اني لأصدقه لانه أهل للتصديق •

هذا هو أساس الاقناع في منطق الاعجاب والايمان ، فان كان للمنطق أو للتجربة العلمية أساس آخر ، فليس معنى ذلك أن الأساسين متناقضان متدابران ، وانما معناه أنهما نحوان مختلفان •

ولكننا ان فرضنا مع هذا أنهما قد تناقضا وتدابرا فليس الخطأ اذن في جانب الصديق ، ولكنه على التحقيق في جانب العالم أو المنطيق •

ان قال العالم أو المنطيق : انني لا أصدق حديث الاسراء ولهذا أبطل الدعوة الاسلامية وأبطل قبلها العظمة المحمدية ، فهو المخطىء في برهانه وهو الذي تعدى به حدود قياسه ••

لأنه نظر الى المسألة في غير جانبها الذي ينظر اليه ، من حيث كان أبو بكر على صواب كل الصواب في نظرته اليها من جانبها الأوفى ، أو جانبها الذي هو مناط التأييد والانكار •

أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذا واحدا ويصدق الخبر فيها جملة واحدة ولا يجزئها قطعة قطعة وخبرا خبرا ، فيبطلها كلها بخبر من أخبارها وجزء من أجزائها •

وأبو بكر ينظر الى المسألة في أساسها فيطمئن اليها عند ذلك الأساس ويبني عليه كل ما فوقه من الاضافات والمزايدات ، والمسألة في أساسها هنا هي مسألة الصلاح والفساد ، ومسألة التوحيد وعبادة الأصنام • ومسألة المقابلة بين الأخلاق الجاهلية

والأخلاق التي تأمر بها الدعوة المحمدية ، ومسألة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعي الكريمة • أو الثقة بالجهل الشائع والعادات الذميمة •

فاذا كان أبو بكر قد نظر الى هذا الأساس فهو المصيب •

واذا كان العالم هو والمنطيق لم ينظرا اليه فهما المخطئان ، وهما المقيمان للقياس على غير أساس قويم • اذ كان خليقا بهما أن ينظرا اليه ولا يغفلا عنه وهو أولى بالتقديم والاعتبار ، سواء أخذناه بالاحساس والايمان ، أو بالتجربة وبالتفكير •

ترى لو مثل العالم والمنطيق والصديق أمام عرش « الحق » السرمد بعد ذلك اليوم بعشر سنين فسألهم فأجابوه كل على ما أجملنا آنفا ، فأيهم كان يسخطه وأيهم كان يرضيه ؟

يمثل العالم أو المنطيق بين يدي الحق فيسأله : ماذا سمعت قبل عشر سنين ؟

فيقول : سمعت من رأى أنه أسرى من مكة الى بيت المقدس فلم أظفر منه ببرهان •

فيسأله : فماذا صنعت بعد ذلك ؟

فيقول : كذبته وصدقت المشركين ، ثم نقضت الدعوة الاسلامية وبقيت حتى اليوم على سنة الجاهلية •

فما يختلف اثنان اذن في الجواب الذي يلقاه ذلك العالم أو ذلك المنطيق ، ليقولن الحق له اذن : انك أخطأت وخالفت العلم والمنطق فيما صنعت لأن تلك المقدمة لا تنتهي بك الى تلك النتيجة ، وحديث الاسراء على أي معنى فهمته لن يجعل النفس العظيمة لغوا ، ولن يجعل عملها العظيم مستحقا للابطال •

ويمثل الصديق بين يدي الحق فيسأله : ماذا صنعت قبل عشر سنين ؟

فيقول : سمعت من رأى أنه أسرى من مكة الى بيت المقدس فلم أشك فيما رآه •

فيسأله : ولم لم يخامرك الشك فيه ؟

فيقول : لأنني صدقته في أمر السماء فما يكون لي أن أكذبه فيما دون ذلك •

فيسأله : فلم صدقته في أمر السماء ؟

فيقول : لأنني أعتقد فيه الخير ولا أعتقد فيه السوء ، ولأنني أعتقد السوء في منكريه ولا أعتقد فيهم الخير .

ليقولن الحق له اذن : انك أصبت وتأديت (١) الى التصديق من طريق صالح للتصديق ، ووافقت المنطق والعلم أخيرا وان لم تأت معهما في الطريق ، وان هذه السنين العشر لتشهد لك بصدق الوعي ولا تشهد به لمن خالفوك : أخذت في المنطق والعلم بالنتيجة ولم تبال بالمقدمة ، وأخذ المخالفون اياك بالمقدمة ولم يبالوا بالنتيجة . فأنت في سبيلك أهدى وأنت الى المنطق والعلم أقرب وأدنى .

أفيفهم فاهم من هذا أننا ندين بقول القائلين : ان النجاح هو برهان الصلاح ؟

كلا ! ليس هذا ما ندين به ، وليس هذا بالذي يقتضيه ما قدمناه ، وكل ما هنالك أننا نقرر حقيقة لا شك فيها حين نقول : ان أبا بكر كان أفهم للعظمة المحمدية ممن أنكروها لأنهم شكوا في حديث الاسراء ، وان المنطق والعلم لا يقضيان بمحاربة الدعوة المحمدية كائنا ما كان فهم الفاهمين لحديث الاسراء . فان قال قائل : ان المنطق والعلم يقضيان بذلك فهو يظلم المنطق والعلم فيما ادعاه عليهما بغير برهان ، وهو الذي يخالف البرهان النفساني في آن .

ولا حاجة بنا هنا الى الغاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية ، وانما حاجتنا كلها ألا تلغى البراهين النفسانية ، لأنها قد تتناول العظائم الانسانية في عمومها فينطوي فيها العلم والمنطق معا ، وتأتي الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الاجمال وتوضيح هذا الابهام .

يقول قائل : وما مرجعنا في البراهين النفسانية ؟ أنصدق كل من يدعيها ؟ أنأخذ بها حيثما رأيناها ؟ أندين بالاعجاب حيثما هتف هاتف باعجاب ؟ فأقرب ما عندنا من جواب أن عظمة النفوس مستحقة للاعجاب كما يستحقه جمال الوجوه .

---

(١) تأديت : تهيأت .

فماذا عسانا قائلين لمن يسألنا : وما مرجعنا في جمال الوجوه ؟ ••• ولا حاجة هنا الى مرجع ، ولا فائدة في المرجع ان وجدناه •

فجمال الوجوه لا يتوقف على مرجعه الذي نسهب أو نوجز في توضيحه ••• وعظمة النفوس من باب أولى قائمة في الدنيا بغير مرجعها الذي نسوقها اليه ، ولا خوف عليها من قلة المراجع عندنا ، فهي تأتي حين تأتي بآياتها وبراهينها ، وحيثما ظهرت معجبة ظهر لها صديقون معجبون ، وأقبل عليها مقبلون وأعرض عنها معرضون ، ولن ينفعها المرجع شيئا ان لم يكن فيها ما يغنيها عنه •

وقد كان في وسعنا أن نجتزىء بهذا ولا نزيد عليه • ولكننا نود أن نستريح بالعقل الى سند ما أمكننا أن نريحه • فغاية ما نستريح بالعقل اليه في هذا الصدد مأخوذ من كلام الصديق نفسه رضي الله عنه • وذلك اذ يقول : « ان خير الخصلتين لك أبغضهما اليك » •• فالدعوة التي تزين لنا ما نستنيم (١) اليه ليست بدعوة عظيم ، والدعوة التي ترفعنا فوق أنفسنا وتنهض بنا الى ما يشق علينا هي الدعوة العظيمة في أصدق مقاييسها ، وهي التي تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى ، وحسبها ذلك « برهانا نفسانيا » لا نهتدي الى خير منه ، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا ما يشق علينا وانتقل بنا الى طور فوق طورنا ، فان كنا على استعداد لهذا الانتقال مالت اليه نفوسنا كما يميل الجسم الى النمو وان كان نموه ليكلفه عنتا عند الولادة ، وعنتا عند التسنين ، وعنتا عند المراهقة ، وعنتا عند بلوغه سن الرشد والاستقلال ••• وان لم نكن على استعداد كرهناه وحسبنا الراحة في كراهته ، وهي في الحقيقة داء يمنع النماء •

مرجع « البرهان النفساني » الصادق في تقدير العظمة أنه سبيل الفداء في طريق النماء ، وكل ما تركنا كما نحن أو تحدر بنا دون ما نحن فيه فبينه وبين العظمة حجاب ، وليس له من ضمائر النفس برهان •

---

(١) نستنيم اليه : نستأنس به •

بهذا البرهان النفساني واجه آبو بكر مسألة الدعوة المحمدية من حيث تنبغي مواجهتها ، ونظر اليها من جانبها الأصيل الذي تنحصر فيه النظرة الأولى ، أمحمد امـام خليق بالاتباع ؟ أهو بطل جدير بالاعجاب ؟ ان كان كذلك فهو معجب به متبع اياه ، وان لم يكنه فلا اعجاب ولا اتباع ... وكل ما وراء ذلك فضول وانحراف عن الجانب الأصيل .

ومحمد بطل جدير باعجابه ، امام خليق بأتباعه ، فامتلأ به اعجابا ولازمه اتباعا ، وعرف طريق الخير من بداءة الأمر آنه أشق الطريقين ، وعوده كرم النحيزة (١) من قبـل أن المجـد تكليف وجهد ، وأن الحق صبر وجهاد ، فكانت سنته فيهمـا آن يحمل المغـارم ، وان يأخـذ بيد المهيض (٢) وأن يجـور على نفسه وفاء بحق غيره ، فلم تطرقه الدعوة الاسلامية مـن باب غريب ، ولم يصادفه الجهاد للدين على غير تأهيب وتدريب ، بل زاده يقينا من طبعه واستواء على نهجه ، وجعله في صدر هـذه الدعوة مثل الاعجـاب والايمـان ، وأبرزه للأجيـال عنوانـا « للشخصية » التي يبلغ بها الولاء للبطولة ذروة مجدها وغاية تمامها ، ويستخرج منها كوامن قواهـا وأحـاسن مزاياهـا ، ويستقيم بها على سوائها ، ويرتقي بها الى سمائها ، فهو هو أبو بكر في تصديقه وولائه على أحسن ما يكون .

وهو هو الصديق .

برهانه في تصديق الغيب كبرهانه في تصديق الشهـادة لأن المرجع فيه الى شخص القائل لا الى الشيء الذي يقال .

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الاسراء بالنبي الى بيت المقدس قال أبو بكر قولته تلك : اني آمنت به في أمر السماء فلم لا أومن به فيما دون ذلك ؟

ولما تشاور المسلمون في صلح الحديبية رضي من رضي وأبى من أبى ، وظهر هنا منطقان متقابلان : منطق أبي بكر يقول : اني أشهد أنه رسول الله فلم لا أتبعه فيما ارتضاه ؟

(١) النحيزة : الطبيعة .

(٢) المهيض : المكسور ويقصد بها هنا « الضعيف » .

ولما اختلف المختلفون في بعثة أسامة كان أمام أبي بكر خطط متعددات يختار منها ما يشاء : منها أن يحتفظ بالجيش لحراسة المدينة ، وأن يحتفظ به لحرب أهل الردة ، وأن يبعث به الى العراق ترصدا للفرس المنذرين بالاغارة ، وأن يبعث به حيث أراد رسول الله ، وان قال بعض القائلين : ان الحال قد تبدل ، وان المقام يؤذن بالمراجعة فيما أراد · فشاء أبو بكر الخطة التي شاءها محمد ، وأبى أن يأذن فيها بمراجعة أو تبديل ·

ولما جاءوا بالأعطية يقسمونها كانت التفرقة بين الأقدار أدنى الى التصرف ، وكانت إلتسوية بين الاقدار الى الاتباع · وكان عمر يقول : أنعطي من حارب الرسول كما نعطي من حارب مع الرسول ؟ وكان أبو بكر يقول : أنؤجرهم على ايمانهم فنعطيهم بمقدار ذلك الايمان ؟ فكان عمر عنوان التصرف وكان أبو بكر عنوان الاقتداء ·

ومن أصالة الاعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلا في أدب الملازمة وقدرة في أصول المصالحة ، وكان بفطرته خبيرا بالمراسم التي نسميها اليوم « بالبروتوكول » لأن أدبه في توقير العظمة أدب الطبع الذي يهتدي من نفسه بدليل ·

أنظر اليه وهو يستأذن أسامة في استبقاء عمر بن الخطاب !

انظر اليه وهو يأبى الا أن يركب أسامة وهو يشيعه سائرا على قدميه !

انظر اليه وهو ينادي بنته عائشة : يا أم المؤمنين !

هو في كل أولئك المعجب المؤدب بأدب المصاحبة الخبير بمراسم المعاملة ، الذي يدري بوحي نفسه كيف يكون التعظيم · وكيف يكون السلوك ، وكيف تصان حقوق المراتب والدرجات ·

قيل : انه كان اذا قدم على الرسول وفود القبائل علمهم كيف يسلمون وكيف يتكلمون بين يديه عليه السلام ·

وكان عليه السلام يوما في المسجد قد أطاف به أصحابه اذ أقبل علي بن أبي طالب فوقف فسلم ثم نظر مجلسا · والتفت عليه السلام يرى أيهم يوسع له ، وكان أبو بكر على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه وهو يقول : ها هنا يا أبا الحسن !

فبدا السرور في وجه النبي ، وقال : « يا أبا بكر · انما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل » ·

وكأنما خلق أمينا لسر ، فما تعوزه صفة واحدة من صفات الأمناء للعظماء الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم · ومنها هذا الأدب ، ومنها قلة الكلام ، ومنها الكتمان عنهم في خاصة شئونهم ، وكان أبو بكر في كتمانه عن النبي يتصدى للملام ولا يبوح بكلام ·

تأيمت حفصة بنت عمر فعرضها على عثمان ، ثم على أبي بكر ، ثم خطبها النبي عليه السلام ·

قال عمر : « فقال عثمان : سأنظر في أمري ، فلبث ليالي ثم لقيني فقال : قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا · ولم يرجع الي أبو بكر شيئا ، فكنت أوجد عليه مني على عثمان ، فلبثت ليالي ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتها اياه ··· فلقيني أبو بكر فقال : لقد وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم أرجع اليك شيئا ؟ قلت : نعم ! قال : لم يمنعني أن أرجع اليك فيما عرضت علي الا أنني كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ولو تركها رسول الله قبلتها » ·

فهو في هذا الكتمان قد جرى على خير سنة يجري عليها أمناء الأسرار ! أشفق أن يذيع سر الرسول عليه السلام فيبدو له في العدول ، فتكون في ذلك ملامة ، فآثر هو أن يلام على أن يعرض صاحبه للملام ·

ومع هذا الكتمان وهذا الكلام النزر كانت له خبرة بكياسة القول هي القدوة العليا لمن جبلوا على مخاطبة العظماء · فسأل رجلا يحمل ثوبا : أتبيعه ؟ فأجابه : لا عافاك الله ··· قال : هلا قلت وعافاك الله !!

تلك نفس ملكتها شمائل الوقار والتوقير ، وامتزجت بها سليقة الاعجاب والتعظيم ، حتى فاضت على جوارحها ، وسرت مرتجلة الى جميع حالاتها ، فهي هنالك تستشفها في بواطن الضمير وتلمسها فيما ظهر من الأعمال والمعاملات ، وتتلقاها من خلجات

الذهن وبوادر اللسان ، وهي هنالك مفتاح الشخصية كلها تنفذ بنا الى خفاياها ، وتفتح لنا ما استغلق من أسرارها ، وتميز لنا بين خصائصها وخصائص الأنفس التي تناظرها في المقام ، وتخالفها في المزاج والتركيب ٠

لقد كان عمر بن الخطاب معجبا بمحمد غاية اعجابه محبا له غاية محبته ولكن « الاعجاب بالبطولة ، كان صفة من صفاته ولم يكن صفته الأولى التي تغلب على جميع الصفات ، وخليقته الشاملة التي تنطوي فيها جميع الخلائق ٠ فاذا قضى حق الاعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة ، واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير ، فكانت له طريق الى الايمان تصاحب طريق الاعجاب وتنتهي معها الى مثل نهايتها آخر المطاف ٠

أما أبو بكر فقد كان الاعجاب أقرب طرقه الى الايمان ، وأكبرها على السواء ٠ وهما بعد هذا وذاك ملتقيان ٠

فاذا كان عمر ثاني المتصرفين بعد نبيه وأستاذه وهاديه ، فأبو بكر أول المقتدين بغير سابق ، وبغير نظير ٠

وهما بعد قرينان يتقابلان في كل حركة من حركات التاريخ ، وكل ظاهرة من ظواهر الأمم ، ولا سيما في ابان الدعوات ٠

* * *

نموذجـــان

النموذجان المتقابلان في الملكات والأخلاق ظاهرة معهودة في كل أمة ، ولا سيما خلال النهضات التي تبرز فيها كوامن الملكات وتمتحن فيها حقائق الأخلاق ٠

وعهد التاريخ بها في شؤون الضمير كعهده بهـا في شـؤون المعرفة والحكمة ، أو في شؤون السياسة والتشريع ، أو في كـل شأن له أثر بين في أعمال الناس ٠

فاصطلح النقاد على تسمية هذين النموذجين في المعرفة والحكمة بالنموذج الافلاطوني نسبـة الى أفلاطون ، والنموذج الأرسطي نسبة الى أرسطاطاليس ، أو النموذج الذي يتمثل في النظريـات ويتعلق بما وراء الطبيعة ، والنموذج الذي يتمثل في التجربـة والمشاهدة ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة ٠

وفي الأدب والفـن يوجـد المثاليون عشـاق المثـل الأعلى ، والواقعيون طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصفون الناس على ما هم عليه ٠

وفي السياسة محافظون ومجددون ، وفي التشريـع حرفيون ومعنويون ، وفي العقيدة أو فقه العقيدة مقتدون ومجتهدون ، وفي ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون ، وأصحاب أثرة أو أصحاب ايثار ٠

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الضديـن اللذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والعلم والجهل ، والهدى والضلال ٠

ولكن المقصود هو التقابل الذي يتمم فريقا بمزايا فريـق ، ويعين قوة نافعة بقوة أخرى تكافئها ، ويزدوج في عناصر الأمة

كما يزدوج الجناحان اللذان يستقل بهما الطائر ، ولا يستقل بفرد جناح ·

هذان النموذجان معهودان ، لازمان ·

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها وجميع مزاياها ، وجميع ما فيها من عدد الأهبة والحيطة وبواعث الاقدام والاحجام ·

ولازمان في النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة في طريقها واحتجب عنها امامها وهاديها ، وأصبح لزاما بعده أن تتقابل القوى ، وتتعاون الجهود ·

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة في الأمة العربية بين عشية وضحاها ، فاذا الأمة العربية كلها كأنما هي حشد مستعد بكل عدة ، متزود بكل زاد ·

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء ، وظهر فيها المقدمون والمتحذرون ، وظهر فيها الخياليون والعمليون ، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند اليه ·

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول ، يوشك أن يجتمع فيهما كل ما تفرق في غيرهما من الملكات والشمائل والميول ·

نموذجان كبيران تغيب في أطوائهما جميع النماذج الصغار ·

وهما نموذج الصديق ونموذج الفاروق ·

بين هذين الرجلين العظيمين تقابل كثير الشعب متعدد الأنحاء: تقابل ينتهي الى التجاذب والاخاء ولا ينتهي الى التدافع والنفار ، لأنهما كانا يحومان معا في نطاق كوكب واحد ، أو نظام كوكبي واحد كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحدة ، هي لها جميعا مركز أصيل لا تنفصل عنه ·

وربما دخل في وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين أكثر ما أجملناه من الفوارق التي تختلف بها نماذج الناس : العقل والعاطفة ، والمحافظة والتجديد ، والواقع والمثل الأعلى ، وما لا يحصى من الالوان والشيات (١) ، والأطراف والحدود ·

---

(١) الشيات : جمع شية وهي اللون ·

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التلخيص في فارق واحد يطويها من معظم نواحيها ، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء ونموذج الاجتهاد ·

كان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الاسلام غير مدافع ·

وكان عمر في تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون مراء ·

وكلاهما كان يحب النبي ويطيعه ويحرص على سنته ويعجب به غاية ما في وسعه من اعجاب ··

ولكنهما في ذلك طريقان يتوازيان ، وان كانا لا يتناقضان ولا يتحدان ·

وان بينهما في ذلك لفرقا لطيف المأخذ عسير التمييز ، نحاول الايضاح عنه جاهدين ، ونرجو أن نبرزه بأوفى ما يستطاع له من ابراز ، ونحسب أننا موفقون حين نقول : ان تقديم وصف على موصوف يكفي في الابانة عن هذا الفرق الدقيق الـــذي لا ينفسح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق ·

فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبي ·

وعمر كان يعجب بالنبي محمد ·

ونزيد القول ايضاحا فنقول : ان حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه الى الايمان بنبوته وتصديق وحيه ·

وان اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه الى حبه والولاء له والحرص على سنته ، وعلى رضاه ·

ولهذا كان أبو بكر صاحبا آمن بصاحبه الذي يطمئـــن اليه ويحمد خصاله ، وكان عمر عدوا رده الاقتناع الى مودة الرجل الذي كان ينكره ويعاديه ·

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمدا فيفهم القرآن ، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمدا حتى يثوب الى الفهم الصحيح ·

هما قريبان جد قريبين ·

ولكنهما ليسا بشيء واحد على كل ما بينهما من اقتراب ·

أو هما كما قلنا في ختـــام الفصل السابـــق : آبو بكر أول المقتدين ، وعمر ثاني المجتهدين ، وبذلك يتكافآن ولا نقـــول يتفاضلان ·

نعم يتكافأن ويتعادلان ، وهذا الذي نريد أن نؤكده و نتجنب فيه سوء الفهم والتفسير ٠

فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظيمين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة ٠

كلا ٠ هذا أبعد ما يخطر على بال أحد يدرك فضائل الرجلين العظيمين ويعرف ما لكل منهما من خلق مكين وعمل جليل ٠

فان الضعف « سلبي » لا يجنى منه عمل عظيم ٠

وصلابة أبي بكر في حرب الردة لم تكن صلابة « سلبيـة » تقول « لا » في موضع « نعم » ولا تزيد ٠

ولكنها كانت صلابة تثوب الى قوة لا شك فيها : قوة مصدرها الاقتداء ٠ هذا لا يهم في وصفها بالقوة وابعادها من صفة الضعف والعجز عن القدرة ٠٠٠ وانما المهم أنها قوة فعالة ، وأنها قوة عظيمة لا مراء ٠

ليست المقابلة اذن بين هذين الرجلين مقابلة بـين قـوة وضعف ، وقدرة وعجز عن القدرة ٠

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة مـن نوع آخر ، وكلتاهما فعالة ، وكلتاهما ذات أثر في الاسلام ، وفي العالـم ، جليل ٠

وليس من الضروري اللازم أن يكون كل مقتد أقل في الشأن والأثر من كل مجتهد برأيه ، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من المجتهدين ، وقد يكون الاقتداء وكله خير ، ويكـون الاجتهاد ولا خير فيه ٠

ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس ، لأنه أقرب الى المشاهدة والاقناع ٠

فالمصابيح الكهربائية منها ما هو أم مستقل بمفتاحه ، ومنها ما هو تابع موصول بمفتاح غيره ٠

ويتفق مع هذا أن يكون « المصبـاح الأم » أصغر حجمـا وأضعف نورا من المصباح الذي يتبع غيره ويضيء بمفتاحـه ، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء ٠

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التي تدور حول غيرها :

لا يلزم أن يكون كل كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر ، وان تكرر هذا في العيان وسبق الى الأذهان ٠

وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصديق والفاروق ، بين أول المقتدين وثاني المجتهدين ٠ فهو بين قوة من نوع ، وقوة من نوع آخر ، ولا محل للضعف في الموازنة بين هاتين القوتين ٠

❋ ★ ❋

وهناك مقابلة أخرى بين الصديق والفاروق لا تفوتنا الاشارة اليها لأنها مقابلة أصيلة فيما تؤول اليه من الصفات والآثار ٠

ونعني بها المقابلة بينهما في تكوين البنية وتركيب المزاج ، وهي أيضا مثل عجيب من أمثلة التقابل بين هذين الرجلين العظيمين ٠

فكان أبو بكر نموذج القوة في الرجل الدقيق ٠

وكان عمر نموذج القوة في الرجل الجسيم ٠

ومن عجيب المصادفات أن هذا كان غزير الشعر بين الغزارة فيه ، وهذا كان أصلع ، بين النزارة فيه ، ليتم بينهما التقابل حتى في الصفة التي لا يقتضيها اختلاف البنية بين الرجل الدقيق والرجل الجسيم ٠

قلنا في كتابنا عبقرية عمر : « ان العالم الايطالي لومبروزو ومدرسته التي تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور في أحد من أهلها ٠ وهي علامات تتفق وتتناقض ولكنها في جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة ٠ فيكون العبقري طويلا بائن الطول ، أو قصيرا بين القصر ، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين ، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود في سائر الناس ، ويكثر بين العبقريين من طراز جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارىء فيكون فيهم من تفرط سورته (١) كما يكون فيهم من يفرط

---

(١) السورة : السطوة

هدووءه ، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة ، في الزكانة (١) والفراسة ، وتارة في النظر على البعد أو الشعور على البعد ، وتارة في الحماسة الدينية أو في الخشوع لله » ٠

تلك جملة الخصائص العبقرية التي أجملناها من كلام لومبروزو وأشياعه ، فكأنما شاء القدر أن يتفق الصاحبان في جوهر العبقرية ويختلفا في أعراضها اختلاف المقابلة ، حتى في غزارة الشعر ونزارته على غير ما يقتضيه هذا الاختلاف ٠

والمقابلة بين الصديق والفاروق في تكوين البنية وتركيب المزاج كان لها أثر كبير في المقابلة بين الرجلين العظيمين في الخلائق والجهود ، فعمر ، بما نشأ عليه من الجسامة والهيبة ، لم ينشأ وله منبه من البنية ينبهه أبدا الى وجوب التهدئة والترويض ، فمضى بتلك البنية كما يمضي راكب الفرس الجموح غير متوجس من جماحه ، لأنه مطمئن آخر الأمر الى العنان ٠

وأبو بكر ، بما نشأ عليه من الدقة والنحول ، قد نشأ وله منبه الى غوائل الحدة التي تعهد من أصحاب هذا التركيب ولا تؤمن غوائلها عليهم ، فراض نفسه على التهدئة والترويض ، ومضى بتلك البنية كما يمضي راكب الفرس الجموح عودها قبل الدخول في المضمار أن تدع الجماح ، وأن تشعر بالعنان القابض عليها في كل حين ٠

وهنا لا تكون التفرقة أيضا من قبيل التفرقة بين القوة والضعف ، وبين القدرة والعجز عنها ، ولكنها على ما قدمنا تفرقة بين قوة وقوة تكافئها ، أو بين طرازين من القدرة يتقابلان ٠

فلو كان أبو بكر ضعيفا قليلا لجمحت به الحدة ، ولم يعتصم من عزمه الى كابح قدير على الكبح ، فتحطم كما يتحطم الضعفاء٠ ولو كان شعوره بنفسه شعور ضعف وقلة لاستقر على هذا

---

(١) الزكانة : الفطنة والفهم ٠

الشعور واستكان اليه ، ولم يأخذ نفسه بالسمت (١) والوقار ، ولا بمناقب (٢) السيادة والمروءة ، ورضي له ولذويه بما يرضى به الضعفاء ·

ولكنه شعر من نفسه بقوة يعتصم بها ويقوى على رياضتها ، فكان مثلا للقدرة الرائضة والنفس المروضة كما تكون في الرجل الدقيق النحيل ·

* * *

في حياة الصاحبين موقف من المواقف النادرة التي يظهر فيها الرجل كله ، ولا يتفق في التجارب النفسية أن يواجهها الانسان مرتين في حياته ، وهو الموقف الذي فاجأهما بموت النبي عليه السلام ·

ليس للصاحبين غير صديق واحد بمنزلة محمد عندهما من المحبة والتجلة ، وهما لا يروعان كل يوم بنبأ فاجع يسوءهما كما يسوءهما نبأ موته وانفضاء عشرته والانس بقربه · فالموقف نادر ، والبلية به خليقة ان تبتلي الرجل في دل ما ينطوي عليه من بديهة وروية ··

وابتلي به عمر فغضب غضبته الموهوبة وثار بالنعاة يتوعدهم ليقطعن أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أن محمدا قد مات ·

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته ، الذي لم ينبهه منبه قط الى ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته ، وكأنما قام في دخيلة نفسه أنه يستكثر حتى على الموت أن يجترىء على الصديق الذي يحبه ذلك الحب ، ويجله تلك التجلة ، ويعتقد فيه تلك العقيدة ، وينتظر حتى من الموت أن يتحامى جانب ذلك الصديق ، ويرعى له حرمة لا يرعاها لسائر الأحياء ·

وأبو بكر يحب محمدا كما يحبه عمر ، ويأسى لفراقه كما يأسى ، ويرفعه مثله درجات فوق مقام الأحياء من قبله ومن بعده ، ولكنه رجل راض نفسه وقمع حدة طبعه ، وعرف الصبر على ما ليس يدفعه دافع ولا تغني فيه حيلة ، فان كان تسليم

(١) السمت : طريق الخير · (٢) مناقب : جمع منقبة وهي الفعل الكريم ·

فهذا أحق المواقف بالتسليم وأولاها بطول ما ارتاض عليه من صبر ، وما تأهب له من أسوة ·

بذلك أدى كل من الرجلين ضريبة طبعه ومزاجه الذي لا معدى له عن مطاوعته والاستجابة لدواعيه ·

ثم زالت الغاشية الأولى · فظهر الرجلان في حالة القرار كما ظهرا في حالة المفاجأة : ظهر أن عمر لم يكن ثورة كله ، بل كانت فيه الى جانب الثورة روية تفرغ للأمر في أحرج أوقاته ، وظهر أن أبا بكر لم يكن روية كله ، بل كانت فيه الى جانب الروية مطاوعة لسليقة الحب والالفة قد تشغله عن العواقب الى حين ·

فبينا هو مشتغل بتجهيز رسول الله اذا بالأنصار يجتمعون في سقيفة بني ساعدة ليتخذوا لهم أميرا دون اخوانهم من المهاجرين ، واذا عمر يتأهب للأمر أهبته ، ويعاجل الخطب قبل استفحاله ، ويأخذ أبا بكر من بيت رسول الله الى سقيفة بني ساعدة ليبايعه هناك بالخلافة ··· ويتقي الحدة من أبي بكر فيهيىء في نفسه كلاما يصلح لذلك المقام يمهد به لكلامه · وفي بعض الروايات أنه فكر في أمر المبايعة قبل ذلك حين لم يفكر فيها أحد من المهاجرين وأنه شاور أناسا وشاوروه فيما يكون بعد وفاة رسول الله · فما كانت غضبته الثائرة الا ريثما قبض على العنان بكلتا يديه ، ثم كان عنانه ذلك أطوع عنان ·

كلا الرجلين العظيمين فيه روية وفيه حدة : تأتي الروية أولا أو تأتي الحدة أولا ذلك هو موضع الفارق من بوادر المزاج والتركيب ، ولكن الروية هناك قائمة في المزاجين حين تراد ·

* * *

وقد نلمس هذه الجوانب المتقابلة من مزاج الصاحبين في كل مسألة ذهبا فيها مذهبين ونزعا فيها الى رأيين مختلفين ·

من ذلك مسألة الردة ، ومسألة خالد بن الوليد ، ومسألة الأعطية والنوافل للمؤلفة قلوبهم ولغيرهم من عامة المسلمين ·

في كل مسألة من هذه المسائل كان كل من الصاحبين عند طبعه ومزاجه ، أو عند المعهود من وصفه واستقصاء أحواله ، دليل أصدق دليل على خلوص الرأي وصراحة الضمير والتوجه الى

الأمر بما يستدعيه عندهما من مقدماته وموجباته ، في غير حيد ولا انحراف عن سواء السبيل ٠

ففي مسألة الردة جنح أبو بكر الى الصرامة وجنح عمر الى الهوادة ، وفي ظاهر الأمر أن هذا اختلاف على غير المنظور من طبيعة الرجلين ولكن الواقع أنه لا يخالف المعهود اذا مضينا فيه الى ما وراء الظاهر القريب ٠

فقد كان أبو بكر عند طبعه حين أبى أن يترك عقالا مما كان يأخذه رسول الله من فريضة الزكاة ، وكان كذلك عند طبعه حين استثاره الاستخفاف به والجرأة عليه ، كأنهم يستصغرونه ويتقحمونه (١) ، وهو الذي توقر (٢) طول حياته من مكانة من يستصغر ويتقحم ، لدقة في تكوينه وقوة في نفسه تعاف أن تحسب عليه الدقة في التكوين صغرا في المقام ٠

وقد كان عمر عند طبعه حين أخذ بالتصرف والاجتهاد على حسب اختلاف الأحوال ، ووثق من مصير الأمور الى الخير بأية حال ٠

*

أما مسألة خالد بن الوليد فقد كان السؤال فيها : هل يحاسب أو لا يحاسب ؟ فكان جواب الصاحبين على حسب المعهود فيهما من مزاج وخليقة ، ولم يكن منظورا أن يقضي أحد منهما بغير ما قضاه ٠

قتل خالد مالك بن نويرة وبنى بامرأته في ميدان القتال على غير ما تألفه العرب في جاهلية واسلام ، وعلى غير ما يألفه المسلمون وتأمر به الشريعة ٠

أفيحاسب على هذا أو لا يحاسب عليه ؟

أول جواب يبدر الى عمر عن هذا السؤال هو المحاسبة بغير وناء (٣) ٠ ولم لا ؟ ما الذي يتقى ؟ ما الذي يكون ؟ ان المبالاة بعقبى حسابه ليست مما يروع عمر ويثنيه ، بل لعلها مما يحفزه الى التحدي والاسراع فيه ٠

---

(١) يتقحمونه : يحتقرونه ٠ (٢) توقر : صار وقورا أو رزينا ٠
(٣) وناء : تأخير ٠

أما أبو بكر فقد استشار هنا طبيعة الاقتداء ، وطبيعة الاعجاب بالبطولة وطبيعة اللين والاغضاء ، وهي تشير عليه بالاعفاء من الحساب أو بالامهال به الى حين •

فهو لا يعزل قائدا من قواد رسول الله وسيفا من سيوفه ، وهو لا ينسى بطولة خالد وان زل أو أخطأ التأويل ، كما قال ، وهو يؤثر اللين لأنه في عامة أحواله مطبوع عليه ما لم يمسه الأمر فيما يثير •

* * *

وجاءت مسألة الأعطية فأبى أبو بكر أن يتصرف في تمييز الأقدار وأقدم عمر على التصرف والاجتهاد •

وجاءت مسألة المؤلفة قلوبهم فأعطاهم أبو بكر متبعا سابقة الرسول وأنكر عمر عطاءهم لأنهم كانوا يأخذون ما أخذوه والاسلام ضعيف ••

فأما الآن فماذا عساهم أن يصنعوا ان لم يأخذوا ؟ ما يصنعونه كائنا ما كان لا يكرثه (١) ولا يثنيه •

* *

وهكذا نستقصي علل الخلاف بين الصاحبين في كل مسألة من المسائل فاذا هي في مردها خلاف بين قوتين من نوعين ، أو خلاف في تناول الأمور على طريقتين ، ولم تكن قط خلافا بين قوة وضعف ، أو بين حرص وتفريط ، أو بين أثرة وايثار •

ومن المسلم أن القوة ضروب ، وأن العظمة صنوف ، وأن اللين لا يلين أبدا والشديد لا يشتد أبدا ، فلا بد من اختلاف بين العظيم والعظيم ، ولا بد من اختلاف بين عمل العظيم الواحد في أوقات • وليس العجب أن يجري كل منهم على خطته وأسلوبه ، وانما العجب أن تتعدد ضروب القوة وتتعدد صنوف العظمة ثم تتوحد الخطة والأسلوب •

وموضع العبرة — بل موضع الاعجاز فيما تقدم — هو تلك الدعوة التي شملت هذه القوة كلها في طية واحدة ، وضمت هؤلاء الرجال جميعا حول رجل واحد ، وجذبت اليها أكرم العناصر

---

(١) لا يكرثه : لا يعبأ به •

التي تأتي بالعظائم وتصلح للخير وتقدم على الفداء ·

فأوجز ما يقال في تلك الدعوة أنها خاطبت خير ما في الانسان فلباها أمثال الصديق والفاروق ، وأقبل عليها الأقوياء المخلصون من كل طراز فليست هي بالدعوة التي تخاطب الضعف والضعة ، ولا بالدعوة التي تخاطب الطمع والأثرة ، ولا بالدعوة التي قوامها الترهيب والترغيب ، ولكنها الدعوة التي يجيبها أكرم سامعيها ، ويتخلف عنها أقلهم سعيا الى الخير واقتدارا عليه ·

والصديق والفاروق خير نماذج الرجال في الجزيرة العربية ، ففي خلائق هذين العظيمين دليل على السر الذي من أجله نادى محمد قومه ومن أجله أجيب ، ومن قال من المكابرين والمتعنتين : ان دعوة محمد لم تكن بالدعوة الصالحة فليقل : أي صلاح كان يلقى في الجزيرة العربية مجيبين أكرم وأقدر من هؤلاء المجيبين ؟ وأي هداية بين الناس أشرف من الهداية التي تجمع اليها أقوى الأقوياء وأطيب الطيبين ، على ما بينهم من تقابل في المزاج والرأي كأعجب ما يكون التقابل بين المختلفين المتفاوتين ؟ وأي اقناع أقنع الصديق ؟ وأي اقناع أقنع الفاروق ؟ الخشية ؟ المتعة ؟ الشر ؟ الطمع ؟ لقد كانا اذن آخر من يجيب ، وكان خصومهما اذن أسرع المجيبين وأسبق المؤمنين !

* * *

اسـلامـه

قيل ان أبا بكر رضي الله عنه كان أول من أسلم ، واتفقت الأقوال على أنه كان أول من أسلم من الرجال ، وأن السيـدة خديجة رضي الله عنها كانت أول من أسلم من النساء ، وكـان علي رضي الله عنه أول من أسلم من الصبيان ، وكان زيد بن حارثة أول المسلمين من الموالي ، وهو الذي تبناه النبي عليـه السلام ٠

وقال النبي عليه السلام : « ما دعوت أحدا الى الاسلام الا كانت منه عنده كبرة ونظر وتردد ، الا ما كان من أبي بكر ، ما عكم (١) عنه حين ذكرته له ، وما تردد فيه » ٠ فلم سهـل اسلام الصديق هذه السهولة التي لم تؤثر عن أحد غيره كما جاء في ذلك الحديث الشريف ؟

لعلنا نختصر الطريق الى جواب هذا السؤال اذا نحن سألنا عن الموانع دون الاسلام ، قبل أن نسأل عن الموجبات ٠٠

لأننا اذا بحثنا عن العقبات فلم نجدهـا ، أو بحثنـا عنهـا فوجدناها قليلة العدد هينة التذليل ، بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير في البحث عن الموجبات ، وعرفنا أنه « لا مانـع » فعرفنا أنه لا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة فما الذي كان يمنع أبا بكر أن يجيب دعوة الاسلام ؟

بل ما الذي يمنع انسانا من الناس ــ كائنا مَن كان ــ أن يجيب الدعوة الى عقيدة جديدة ؟

موانـع شتى

ومن الحقائق الملحوظة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون في

---

(١) عكم عنه : تأخر ٠

أبي بكر الصديق ، فلا نعرف أحدا في عصر النبي كانت موانعه دون اجابة الدعوة الجديدة أقل من موانع هذا الرجل الصادق المصدق ، المستعد لاجابة النبي الى هدايته كأنما كان معه على ميعاد ٠

يمنع الانسان أن يصغي الى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة ، تجتمع وتتفرق ، ويبتلى الرجل الواحد بها جميعا ، وقد يبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الاصغاء والاجابة ٠

يمنعه أن يجيب الدعوة الى المصلحين غطرسة ، أو سيادة مهددة ، أو مصلحة في بقاء القديم ومحاربة الجديد ، أو ذهن مغلق لا يتفتح للفهم والتفكير ، أو مغامسة (١) للشهوات تحبب اليه أن يستنيم (٢) الى العرف الذي يبيحها ويعزف (٣) عن الهداية التي تحظرها وتقف في سبيلها ، أو تعصب غضوب للعقيدة التي درج عليها ، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة في أبناء قومه ، سواء منهم المتعصبون لها والقابلون لها على المجاراة والمداراة ، أو جبن ينهاه أن يخرج على المألوف ويتصدى لسخط الساخطين وان تبين طريق الاستقامة والسداد ، أو ايغال في الشيخوخة يصد الانسان عن كل تغيير ويميل به الى كل تواكل ومتابعة وتقليد ، أو حداثة سن تجعله تابعا لغيره في الرأي والخليقة وتجعل له شرة (٤) تحجبه عن التروية والمراجعة ، أو ذلة مطبوعة تلحقه بمن أذله وبسط سلطانه عليه ٠

فالغطرسة خلة تأبى على صاحبها أن يستمع الى قول أو يصيخ الى دعوة ، أو يتنزل الى متابعة انسان ، ترفعا عن الاصغاء قبل أن يهديه الاصغاء الى موافقة أو انكار ٠

والسيادة المهددة توحي الى صاحبها كراهة التجديد ، لأنه يحس بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة ان شاع ما جدده بين الناس ، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذي قامت

---

(١) المغامسة : الغوص ٠ (٢) يستنيم الى الشيء : يستأنس به ٠
(٣) عزف عن الشيء : زهد فيه ٠ (٤) شرة : النشاط والحدة ٠

عليه ، وقيام الجديد الذي نسخه وعفاه .

والمصلحة في حالة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محبا لتلك الحالة حبه للمنفعة ، كارها لتبديلها كراهته للخسارة ، ميالا الى محاربة الدعوة الجديدة قبل أن يبحث فيها ويتعرف وجوه الخير الذي قد يصيبه منها .

والذهن المغلق يجهل ما يقال ، ويعادي ما يجهل ، وينفر من كل ما يشق عليه ، وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئا على وجهه السوي . أو يتهيأ للفهم بأية حال .

ومغامسة الشهوات تبغض الى المرء سلوانها والاقلاع عنها ، وتقرن عنده دعوات الاصلاح والاستقامة بشؤم التنغيص والتكدير ، فيتبرم بها وينزعج لها ، كما ينزعج النائم المستغرق أيقظته من نومة لذيذة قد استراح اليها .

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يثيره أن تمس عقيدته كما يثور لحماية الحوزة أو الذود عن الآباء والأجداد ، لأنه يحسب عقيدته ملكا له ولآبائه يرد عنها من يهجم عليها ، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه .

والعقيدة اذا كانت قوية السلطان غلبت عزتها على عزة العقل والفؤاد ، فأصر عليها من كان خليقا أن يعافها ويعرف عيبها لو دعي الى تركها وهي تتداعى وتتزعزع وتؤذن بالزوال .

والجبن يخيف صاحبه أن يجهر بالحق ويبتعد به عن طريق المخافة ، فلا يدنو الى الصوت الذي عسى أن يقوده الى الاصغاء فالايمان فالجهر بما يضير (١) .

والشيخوخة عدو لكل طارق ، والحداثة بين طيش يدعو الى التمرد وطاعة تدعو الى متابعة الأولياء ، والذلة حجاب بين الذليل ونفسه يحجبه وراء من أذله ، فلا تصل اليه الدعوة الا من تلك الطريق .

هذه موانع الاصغاء الى كل دعاء جديد .

أو هذه أعم الموانع التي تحول بين معظم الأسماع والاصغاء الى ذلك الدعاء .

---

(١) يضير : يضر .

ومن الحقائق الملحوظة ـ كما أسلفنا ـ أن أبا بكر كان براء منها جميعا ، أو كان كأبرأ الناس منها في عهد الدعوة المحمدية ٠

فلم يكن متغطرسا ، بل كان مشهورا بالدعة والتواضع ، مألفا (١) لقومه كما قال واصفوه « محببا سهلا ٠٠٠ » وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته ٠

ولم يكن مهددا في سيادة مضروبة على أعناق الناس ، فكان من ذوي الشرف في قريش ، ولكنه لم يكن من قبائلها الساطية التي تستطيل بالبغي والطغيان ٠ كان من (تيم) وهي بيت قرشي معدود ، ولكنه لم يمنع أبا سفيان أن يقول كما قال لعلي ابن أبي طالب يستثيره حين بويع أبو بكر بالخلافة : « ما بال هذا الأمر في أذل قبيلة من قريش وأقلها ؟ » ولم تكن « تيم » أذل قبيلة في قريش كما قال أبو سفيان ، ولكنها على أية حال لم تكن بمقام السطوة والسيادة التي تطمس الضمائر والألباب ٠

ولم تكن لأبي بكر مصلحة في دوام الجاهلية ، لأن عمله فيها كان ضمان المغارم والديات ، وربما كان هذا العمل أدنى الى الخسارة منه الى المنفعة والغنيمة ، فلا راحة ولا أسف عليه ٠ أما التجارة فلا خوف عليها من الدعوة الجديدة ، وصاحبها الداعي اليها تاجر يبيحها ويزاولها ويحض عليها ٠

ولم يكن مغلق الذهن ولا وصفه أحد بهذه الصفة من محبيه أو شانئيه (٢) ، بل كان معروف الذكاء يلمح اللحن البعيد فيدركه ويسبق الحاضرين الى فهمه والفطنة لموضع الاشارة فيه ، كما حدث غير مرة والنبي عليه السلام يتحدث أو يعظ الناس ٠

ولم يكن مغامسا للشهوات ، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من ذوي الأقدار والأخطار ، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدنس ولم يشتهر قط بوصمة يعيبه بها من أسرعوا الى معابته يوم هجر عقيدة الجاهلية وجنح الى عقيدة الاسلام ٠

---

(١) مألف : الذي يألفه الناس ٠

(٢) شانئيه : مبغضيه ٠

ولم تكن عبادة الأوثان عقيدة مكينة السلطان في عهد الدعوة المحمدية ، بل كان أناس يهملونها وأناس يبحثون عن غيرها ، وأناس يؤثرون عليها المسيحية واليهودية ، فلا يصابون بمكروه في أكثر ما سمعنا من أخبار أولئك المتمسحين أو المتهودين ٠

وعلى هذا لم يكن أبو بكر متعصبا للجاهلية وعباداتها ، بل لعله كان مزدريا لها مستخفا بالأصنام وبأحلام عابديها ، واذا صح ما جاء في « أنباء نجباء الأبناء » فهو لم يسجد لصنم قط ٠ وقال : « لما ناهزت الحلم أخذ أبو قحافة بيدي فانطلق بي الى مخدع فيه الأصنام فقال : هذه آلهتك الشم العوالي ، وخلاني وذهب فدنوت من الصنم وقلت : اني جائع فأطعمني ! فلم يجبني ٠ فقلت : اني عار فاكسني ! فلم يجبني ٠ فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه » ٠

ولم يكن الصديق بالجبان ، ولا بالشجاع الذي نصيبه من الشجاعة قليل ، بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعدودين في الجاهلية والاسلام ٠ فثبت مع النبي في كل وقعة حين ولى من ولى وأبطأ من أبطأ ، وغامر بحياته في حروب الردة وله مندوحة عن خوضها ، ولم يذكر في أخباره قط خبر نكول أو خوف على حياة ومال ٠٠

ولم يكن شيخا فانيا متابعا لكل قديم ، ولا حدثا صغيرا تطيش به شرة الشباب حين دعاه محمد الى دينه وهداه ، بل كان رجلا ناضجا في بسطة الرجولة ، يفقه الأمور ويعتدل بين الصبا الباكر والكهولة المولية ، ويزن القول بفهم نافذ وحكم صادق ، وعقل راجح يعرف الترجيح ٠

تلك جملة الموانع التي تحول بين الانسان وقبول الدعوات الجديدة الى الاصلاح ، وكلها هنا غائبة على الأقل ان لم نقل ان جانب الدواعي في مكانها أوضح من جانب الموانع ، ومعنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الاسلام عقبات تصده عن وروده ، وأن طريقه اليه كانت ممهدة مفتوحة يخطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يتبعها بخطوات ٠

على أن الأمر لم يقتصر على قلة الموانع في طريق الصديق الى الاسلام ٠ فقد كانت هناك الدواعي التي أشرنا اليها في مكان

تلك الموانع ، وكانت للصديق خلائق عاملة تقربه من العقائد القويمة ، وتجعله ممن يستمعون القول فيتبعون آحسنه ، ولا حاجة به الى آكثر من ذلك ليفرق بين سنن الجاهلية وسنن الاسلام ، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والاعتراض ، وما هو حقيق بالحرص عليه والايفاض (١) اليه ·

كان الرجل صادق الطبع مستقيم الضمير ، لا يلتوي به ، عما يعلم آنه الحق ، عوج ولا سوء دخلة (٢) ، وعرف باسم الصديق اذ عرف الناس فيه الصدق من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالاسلام ، لأنه كان يضمن المغارم والديات فيصدقونه ويعتمدون على وعده ويركنون الى وفائه ، وقيل : انه سمي بالصديق لتصديقه النبي في كل ما أنبأه به من المغيبات والبشائر ولكنهم لم يختلفوا في تصديق ضمانه والاعتماد على وعده ، وان اختلفوا في سبب التسمية وفي ميقاتها من الجاهلية او الاسلام ·

ومن كان على هذا الصدق في الخليقة فلا حجاز بينه وبين دعوة اصلاح ، وليس من شأنه آن يصم أذنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم ولا أن يعادي الحق ويلج في عداته ، شنشنة (٣) المكابرين المستكبرين ·

وكان مطبوعا على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح ، يطلب العقيدة ويطلب المعتقدين بها والمهتدين اليها · يبدو ذلك من اسراعه الى التبشير بالاسلام ساعة آن اهتدى اليه ، فدخل في الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبي عليه السلام واعظمهم أثرا بعد ذلك في قيام الدولة الاسلامية ، كعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وجعل لا يهدأ ولا يستريح حتى أدخل في دينه أمه وأباه وذويه ·

وتبدو حماسته لاعتقاده من الحاحه على النبي أن يظهر بالمسلمين في نواحي المسجد وهم دون الأربعين عددا ، ومن قيامه بينهم خطيبا يجهر بالدعوة الى الله ، والمشركون متربصون

---

(١) الايفاض : الاسراع · (٢) دخلة : باطن الامر · (٣) الشنشنة : العادة أو الطبيعة ·

ثائرون ، حتى أصابه من ذلك أذى شديد خيف عليه الموت منه ، وتركه المشركون وهم لا يشكون في أنه مات أو أنه مائت عما قريب •

وتبدو هذه الحماسة من اتخاذه مسجدا لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق ، يسمعه حين يقرأ كل عابر ، ويتوعده المشركون فلا يفزع من وعيد • ولما جاءه الرجل الذي أجاره من المشركين على ان يكتم اسلامه فخيره بين الكتمان أو رجع الذمة اليه ، لم يتردد في رد ذمته وقال له : فاني أرد اليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل •

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة اليه والحماسة له غير عجيب أن يسرع الى العقيدة الجديدة هذا الاسراع •

والى هذا كان قريبا من السليقة الدينية التي تتراءى في مكاشفة الغيب واستطلاع الرؤى والهواتف وانفتاح النفس لاشارات الايحاء والاستيحاء ، ويروى عنه أنه رأى قبل البعثة وهو بالشام رؤيا تنبىء بقرب ظهور النبوة في البلاد العربية ، ويعرف عنه على التحقيق أنه كان يعبر الرؤيا بين يدي النبي عليه السلام ويستأذنه في تفسيرها ، ويحتفل هو بما يراه في منامه •

والى هذه القربى من الايمان بالغيب كان لطيف الحس خاشع النفس عظيم الرفق والمودة ، لا ترين (١) على قلبه تلك الغلظة التي تغلق أبواب القلوب وان تفتحت الأذهان ، فكان خشوعه يبكيه وفرحه يبكيه ، وسليقته الدينية كاملة لا يعوزها الا القبس الذي يلمسها ، فتضيء ثم لا ينطفىء لها ضياء •

وكان مع الصدق وحماسة العقيدة ومقاربة الغيب وموحياته ونجاواه بليغا متذوقا للبلاغة ، كثير الرواية للشعر والاسترواح للكلام الحسن الفصيح ، فكان في ازدرائه لكلام المتنبئين غضب تلمح فيه عيفان (٢) الذوق البليغ كما تلمح فيه عيفان المؤمن الناقم على الضلال • سمع فقرات من قرآن مسيلمة الكذاب فما

---

(١) لا ترين : لا تغلب • (٢) العيفان : النفور والكراهية •

عتم أن ابتدر قارئيه مشمئزا من سخفه واسفافه : « ويحكم ان هذا لم يخرج من ال (١) ولا بر ! » ٠

ولا جرم يكون هذا الذوق المستقيم سببا قريبا بين صاحبه وبلاغة القرآن وبلاغة النبي عليه السلام ٠

الا أن سبب الأسباب جميعا في التقريب بين الصديق وبين الدعوة المحمدية هو ذلك السبب الغالب على كل ما ذكرناه ، لآنه يمتزج بأطواء نفسه ويصبغها بصبغته وينحو بها أبدا في منحاه ، ونعني به الاعجاب بالبطولة ، ذلك الاعجاب الذي نحسبه ملاكا لأخلاقه ومفتاحا لشخصيته كما فصلناه في غير هذا الباب ٠

فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله ، ثم يثق به ، ثم يرتقي بالثقة الى ما فوقها وما هو أمكن منها ، لأن الثقة استناد الى وثيقة تدعو اليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها ، أما الاعجاب فهو الرغبة في الثقة وكراهة التحول عنها ، هو البحث عن الثقة والتذاذها اذا وقف الواثقون عند الانتظار ، أو مجرد التأمين والموافقة بعد الانتظار ٠

وقد تواترت أنباء مختلفة بصداقة أبي بكر للنبي عليه السلام قبل الدعوة المحمدية بسنين ، وذكر المؤرخون الثقات أنه كان معه عليه السلام حين ذهب في صحبة عمه الى الشام واجتمع بالراهب بحيرا وسمع منه ما سمع عن الدين والبشارة بالنبوة ٠ وقد شك بعض المؤرخين من الأوربيين في اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة المحمدية بزمن طويل ، الا أن الدليل الذي يغني عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الأقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله ، ولن يكون ذلك بغير معرفة سابقة بين الرجلين حببت الى النبي عليه السلام أن يبدأ به ويترقب منه الاصغاء اليه ، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق الى الاسلام أن يكون أبو بكر معروفا بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معروفا بصفاته لأبي بكر ٠ فلما سمع دعوته سارع الى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبعه ونقاء سيرته وبلاغة حديثه ، وأعانه على التفرقة بينه وبين خصومه ، والتمييز بينه وبين

---

(١) الال : العهد والحلف ٠

منكريه أنه كان نسابة (١) قريش لا يفوته مغمز (٢) من مغامزهم قديمها وحديثها في الأنساب والأخلاق ، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك براء ٠

من جملة ما تقدم تتبين لنا سهولة اتجاه الصديق الى الدعوة المحمدية ، سواء من ضعف العقبات في طريقه أو من قوة الدواعي التي تجذبه اليه ، فقد اجتمعت هذه وتلك على تفسير تلك الأعجوبة النادرة في تاريخ الدعوات الجديدة : اعجوبة رجل في سمت الرجولة يقال له : تعال الى دين جديد غير دين آبائك وأجدادك ، فلا يتوانى ولا يتردد في اجابة الدعوة ، وما هو الا أن يسمعها حتى يلبيها وينقطع لها ، ويصبح من أقوى دعاتها بعد صاحبها ٠

ومن تمام الجلاء في تفسير تلك الأعجوبة أن نفهمها على حقيقتها في جميع أحوالها وملابساتها ، وأن نفهم الفارق بينها وبين نظائرها لو جرت في عصرنا الحاضر ، أو في بيئة أخرى غير البيئة التي جرت فيها ٠

فنحن نسمع بقصة أبي بكر وتصديقه السريع للدعوة المحمدية فنحضر في أخلادنا رجلا من المسلمين أو المسيحيين أو الاسرائيليين في عصرنا الحاضر يقال له : تعال الى دين غير دينك ودين آبائك وأجدادك فيجيب الداعي لتوه وساعته كأنها تحية وجوابها ٠

وهي أعجوبة عندنا يوشك أن يأباها العقل وأن تمتنع على التصديق ٠

ولكن اسلام أبي بكر لم يكن من هذا القبيل ، ولم يكن الدين الذي تحول عنه كالدين الذي يؤمن به المسلم في هذه الأيام ٠

لم يكن دين المشركين من قريش دينا من أديان الروح وعقيدة من عقائد الضمير ٠

لم يكن له شأن بالحياة الصالحة ولا بالحياة الباقية ولا بالنظر الى الكون في أسرار خلقه ولا بالجماعة الانسانية في قوام أمرها ومناط الخير والشر فيها والصلاح والفساد بين رجالها ونسائها ٠

---

(١) نسابة : عالم بالانساب ٠ (٢) مغمز : عيب ٠

ولم يكن التابعون له ينظرون اليه هذه النظرة أو ينظرون هذه النظرة الى دين آخر أو عقيدة أخرى ٠

ولكنهم كانوا ينظرون الى عقائدهم نظرتهم الى الموروثات المألوفة والعرف المتفق عليه ، أو نظرتهم الى العادات التي ترتبط بها مصالح العيش ومصالح السيادة والجاه ، وكان يعز عليهم أن يقال لهم : ان آباءهم واجدادهم هالكون ، وان الدين الذي نشأوا عليه وماتوا دين سخف ومهانة وضلال ٠ فكانوا في ثورتهم على الدعوة الجديدة أشبه الناس بأبناء القرى والمدن الذين يثورون على رجل يبتدع في الولائم والأفراح والجنائز بدعة تخالف المألوف وتهدد مصالح الوجهاء أو ما يسمونه « شرف الأسرة » وسير البلدة وعادات الناس ، وتهدد مع تهديدها الوجهاء مصالح العاملين في شئون الزواج وشعائر الوفاة ، وما الى ذلك من الرسوم والعادات ٠

وكان المشركون لا يبالون ان يخرج على دينهم من يخرج عليه ناجيا بروحه خاليا بنفسه بينه وبين ربه ، فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم في دعة وآمان الا من أذى الأقارب المخالفين لهم في قليل من الأحيان ، وانما كانوا يثورون على الدعوة العامة التي تبدل العرف كله وتخرج الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التي استقرت عليها ٠ فكان الثائرون في وجه الدعوة المحمدية من مشركي قريش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم الى رابع : رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هي عليه ، ورجل من الاذناب الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ولا يفعلون الا ما يأمرهم به السادة المسيطرون ، ورجل لم يصغ الى الدعوة الجديدة حق الاصغاء ، ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم ٠

وما عدا هؤلاء جميعا فهو قريب من الدعوة المحمدية لا يمنعه مانع أن يتجه اليها متى أصاب الوجهة التي تهديه في طريقه ، وليس معنى ذلك أن التغلب على العرف الجاهلي كان من الهنات الهينات أو كان أهون من التغلب على سائر العقائد والأديان ، فليس أصعب ولا أعضل في الحقيقة من التغلب على عرف ترتبط

به مصالح السيادة وغباوة الدهماء (١) وتراث الأجداد والآباء ، وانما معناه أن الأمر لا يعم جميع المشركين ما لم يكن واحدا من أولئك الثلاثة ، وهم ألوف وألوف ٠

وأبو بكر رضي الله عنه لم يكن واحدا من هؤلاء ٠

وكان مع هـذا رجـلا يحس بالروح والضمـير ، ويحـس الخواء (٢) الذي تتركه العقائـد الجاهليـة في حيـاة الروح والضمير ٠

وقد عافاه الله من سبب قوي من أسباب الثورة على الدعوة المحمدية بين المشركين المعتزين بالاباء والأمهات ٠٠

« أأبي على ضلال ؟ أامي مع الهالكات ؟ ٠٠ تلك خاطرة كانت تهجس في نفس المشرك من قريش فيغضب ويثور ويحسب الدعوة الجديدة في عداد السباب الموجه الى أقرب الناس وأعزهم عليه ٠

أما ابو بكر فقد عافاه الله من ذلك في ابان الدعوة المحمدية ، لأنها ظهرت وأبوه وامه يقيد الحياة مفتوح لهما باب النجاة ، فما زال بهما حتى دخلا معه في دينه ، واطمانت نفسه على أبيه وأمه وبنيه ٠

وفيما عدا هذا قيل له : دع هذه البقايا الفاسدة وأقبل ومن تحب على دين جديد فيــه الخير والصلاح والهداية الى خالـق الأرض والسماء ٠

فلم لا يترك تلك البقايا الفاسدة ؟ ولم لا يقبل على الدين الجديد ؟

انه لا يحب بقايا الجاهلية ، ولا يربطه بها شح ولا كبرياء ولا ذلة ولا غباء ، وانه ليفهم ويعقل ويحب الخير والصلاح ويحس في قلبه جيشان الروح والضمير ، وان الذي يدعوه لكريم حليم صادق قويم حبيب الى النفس مبرأ من العيب يحق له أن يجاب ، وانه لا يخاف لأنه شجاع ، ولا يقابل الأمر بفتور المستخف لانه رجل حي الفؤاد مطبوع على الحماسة لما يؤمن به والاعجاب بمن يستحق عنده الاعجاب ٠

---

(١) الدهماء : جماعة الناس ٠ (٢) الخواء : الفراغ ٠

فالعجب أن يدعى الى تلك الدعوة فلا يجيبها أسرع ما يكون الجواب ، وليس العجب أن يسرع الى اجابتها كما أسرع فأجاب •

وهكذا يبين لنا في اسلام أبي بكر كما بان لنا في اسلام كل رجل ذي بال من السابقين الى الدعوة المحمدية أنها دعتهم اليها بأسبابها المعقولة فاستجابوا اليها بأسبابهم المعقولة التي توائم كلا منهم أصدق المواءمة ، ولا تحوج أحدا من المعللين والمفسرين الى الخوارق المكذوبة ، أو الى تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف •

وكما قلنا في كتابنا « عبقرية محمد » ان الأقوياء لم يسلموا خوفا لأنهم أقوياء ، وان الضعفاء لم يسلموا خوفا لأن الاسلام عرضهم للقتل والعذاب ولسيوف المشركين الذين لهم عليهم سيادة وطغيان ، « وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال : ان الذين سبقوهم الى الاسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة ، ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور • فمن كان أقرب الى هذه الطلبة من غني أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم • ومن كان به زيغ (١) عنها فقد أبى ، وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للاسلام سيف يذود عنه ، وبعد أن تجزد له سيف تهابه السيوف ، وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان في جانب اللذة والخوف ، ويضع الطغاة من قريش في جانب العصمة والشجاعة الا أن يكون له هوى كهوى الكفار • • • »

كان الصديق اذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالاسلام بعد نبيه عليه السلام • دان به سريعا الى دعوته لتلك الأسباب التي تليق به وتليق بالدعوة المحمدية ، وكتب له في اللحظة الأولى أن يكون ثاني اثنين حين يكون النبي هو أول الاثنين • فكان ثاني اثنين في الاسلام ، وثاني اثنين في غار الهجرة ، وثاني اثنين في الظلة (٢) التي أوى اليها النبي يوم بدر الذي لا يوم مثله ، وثاني اثنين في كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين ،

---

(١) الزيغ : الميل عن الحق • (٢) الظلة : ما يستظل به من الحر أو البرد •

وأقرب صاحب الى النبي في شدة الاسلام ورخائه ، وفي سره وجهره ، وفي شئون نفسه وشئون المسلمين ٠

ومن اللحظة الأولى وهب للاسلام كل ما يملك انسان أن يهب من نفسه وآله وبنيه ٠ فأخذ أمه الى النبي لتسلم على يديه وهي بين الحياة والموت ، وجاءه بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد جلله الشيب وابيض رأسه كأنه ثغامة (١) ، وحمل ماله كله وهو يهاجر في صحبة النبي يؤثر به الدين على الآل والبنين ٠

والروايات في توجيه الدعوة اليه مختلفات : منها ما يؤخذ منه أن النبي عليه السلام وجه الدعوة اليه خاصة فلباها ، ومنها ما يؤخذ منه أنه عليه السلام قصد الناس في المسجد بالدعوة العامة فاتصل نبؤها بأبي بكر فجاءه يسأله :

يا أبا القاسم ! ما الذي بلغني عنك ؟

فسأله النبي : وما بلغك عني يا أبا بكر ؟

قال : بلغني أنك تدعو الى توحيد الله ، وزعمت أنك رسول الله ٠

قال : نعم يا أبا بكر ٠ ان ربي جعلني بشيرا ونذيرا ، وجعلني دعوة ابراهيم ، وأرسلني الى الناس جميعا ٠

فما أبطأ أبو بكر أن قال : والله ما جربت عليك كذبا وانك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك ، وصلتك لرحمك وحسن فعالك ٠ مد يدك فاني مبايعك ٠

والصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الفعال صفات يفهمها أبو بكر لأنه يحبها ويتصف بها ويحب أهلها ٠ فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال ، وتلك أقرب الآيات الى لبه وقلبه ، وهي أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين المصدقين ، فمن الجائز أن تخدعنا الخوارق وليس من الجائز أن يخدعنا من يصدق ويبر ويؤدي الأمانة ، ويستقيم على سواء الطريق في فعاله وخصاله ٠

وأصبح الاسلام منذ تلك اللحظة دينا عند أبي بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات ٠ أصبح عنده غنيمة يفتديها بكل غنيمة يضن بها المرء من حياة أو آل أو ذرية ومال ،

---

(١) الثغام : نبت جبلي ورقه كورق الزنجبيل ، اذا يبس شبه الشيب به٠

ولو قاسه بمقياس دنيا • لقد كان الاسلام بلية عليه لا يطلبها عاقل ، ولكنه قاسه بمقياس دين فعلم أنه أربح الرابحين وأرشد الراشدين •

طلبه دينا وكفى • فصبر فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا ، ويأبى أن يستهدف له أو يشارفه (١) من بعيد •

كان المسلمون دون الأربعين يوم أشار على النبي أن يجتمعوا في المسجد ويجهروا بالدعاء • فلما وقف بينهم في المسجد يدعو الى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم اهانة مع الضرب والايذاء ، وتصدى عتبة بن أبي ربيعة لأبي بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى ورم وجهه ، وخفي على الناظر اليه مكان أنفه • وتسامع أهله من بني تيم فأقبلوا يتعادون ويجلون المشركين عنه • ثم حملوه في ثوب الى بيته وما يشكون في موته • وصاح منهم صائحون في المسجد : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة •

ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب ، فكان أول ما فاه به وهو في تلك الحال : ما فعل رسول الله ؟

فلاموه وعنفوه ، وسألوا أمه أن تطعمه أو تسقيه شيئا يرد اليه نفسه فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله •

قالت : والله ما أعلم بصاحبك •

قال : فاذهبي الى بنت الخطاب فاسأليها عنه •

فلما جاءتها أنكرتها وأشفقت أن تكون عينا (٢) من عيون المشركين عليها وعلى رسول الله • فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله ! • ثم عرضت عليها أن تذهب الى أبي بكر لتسمع منه وتطمئن الى مقاله • فوجدته صريعا دنفا (٣) قد برح به الألم ، فغلبها الاشفاق فأعلنت بالصياح وهي تقول : ان قوما نالوا منك لأهل فسق • واني لأرجو أن ينتقم الله لك •

فما زاد على أن كرر سؤاله الذي لزمه مذ أفاق من غشيته : ما فعل رسول الله ؟

---

(١) يشارفه : يدنو منه •

(٢) العين : الجاسوس • (٣) الدنف : الذي يلازمه المرض •

قالت وهي لا تزال حذرة من أمه : هذه أمك تسمع !
قال : لا عين عليك منها ٠
قالت : سالم صالح !
فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه ، وسألها : أني هو ؟٠٠
فأعلمته بمكانه من دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وأحب أن يذهب اليه ، وكأنه أحس من أمه ممانعة في خروجه وهو بتلك الحال ، حتى يتبلغ بشيء ويذوق شرابا يرويه ويقويه ، فأقسم لا يذوقن طعاما ولا شرابا أو يرى رسول الله ٠

وأكبرت المرأتان العطوفان حبه لصديقه ونبيه ، فأمهلتاه حتى هدأت الرجل وسكن الناس ، وخرجتا به يتكيء عليهما ولا يقدر على حمل نفسه ٠ ثم دخلتا به على رسول الله وهو بتلك الحالة فانكب عليه يقبله ، ورق الرسول لصديقه وصفيه رقة شديدة ، فقال الصديق الصفي : بأبي أنت وأمي ! ليس بي الا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة بوالديها فادعها الى الله ! وادع لها عسى أن يستنقذها بك من النار ٠

ولبث بين المشركين يستهين بالخطر على نفسه ، ولا يستهين بخطر يصيب النبي قل أو كثر حيثما رآه واستطاع أن يذود عنه العادين عليه ، وانه ليراهم آخذين بتلابيبه فيدخل بينهم وبينه وهو يصيح بهم : « ويلكم ، أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ » فينصرفون عن النبي وينحون عليه يضربونه ويجذبونه من شعره فلا يدعونه الا وهو صديع (١) ٠

ولما أذن له النبي في الهجرة الى الحبشة بعد ما ابتلي به من عنت المشركين غضب لرحلته الأكرمون من القوم ولحق به ربيعة ابن فهيم المعروف بابن الدغنة فقال له : ان مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ٠ انك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ٠ ارجع واعبد ربك ببلدك ٠

وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش يبلغهم أنه أجار أبا بكر فعرفوا له جواره وقالوا له : مره فليعبد ربه في داره

---

(١) صديع : مشقوق الثوب ٠

يصلي فيها ويقرأ ما يشاء ، ولا يؤذينا ولا يستعلن به ، فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ·

الا أن أبا بكر بنى بفناء الدار مسجدا يصلي فيه ويرتل القرآن ، ويستمع له النساء والأطفال فيجتمعون اليه · منهم من يسخر ومنهم من يعجب ويسأل عن الخبر · ففزع المشركون وطلبوا الى ابن الدغنة أن ينهاه أو يسترد منه ذمته ، فأبى أبو بكر أن ينتهي عن الجهر بالصلاة والقراءة ، وقال لابن الدغنة : فاني أرد اليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل !

وبقي بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ولنبيه ولا يعمل لنفسه الا ما ليس عنه غنى من طلب المعاش ، يدعو وجوه الناس ويعرض الأمر على القبائل ، ويغني في الدعوة بصلاح سيرته ورجاحة قدره ويقين الناس باستقامة قصده ، ما قل أن يغنيه دليل العقل أو نقاش الجدل والملاحاة (١) · وكان يتعرض للأذى فلا يعنيه أن يتقيه كما يعنيه أن يقي منه النبي وسائر المسلمين · فكان يعين الفقراء ويعتق الموالي الذين يسامون العذاب في سبيل الله ، أو يحمل المغارم ويهيىء لمن أراد الهجرة وسائلها ، ولا يكون عمل من الأعمال ينفع الدين الجديد وينفع أهله الا وله سهم فيه ·

ثم كانت هجرته الى المدينة فكانت أخطر هجرة أقدم عليها مسلم من أهل مكة · اذ كان كفار قريش يقيمون لكل مهاجر من الأرصاد والعيون كفاء قدره ، وكانت أرصادهم وعيونهم على النبي أكثر ما استطاعوا من عدة وكيد وحيطة · فكانت الهجرة في صحبة النبي شرفا من شرفين ، لا يدري المرجح بينهما أيهما أحق بالاعظام : اما مجازفة بالحياة ، واما يقين لا يخامره الريب أن النبي ناج في حماية ربه ، ولو كان في الهجرة ما فيها من فراق الموطن أو الهجوم على فراق أرهب منه وأقسى ، وهو فراق الدنيا ·

فتلقى أبو بكر الاذن بهذه الهجرة كما يتلقى البشارة بالسلامة · قالت بنته عائشة رضي الله عنها : « ما شعرت قبل

---

(١) الملاحاة : المنازعة ·

ذلك أن أحدا يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي حين أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحبته » ٠

وقالت بنته أسماء رضي الله عنها : « لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهاجر أبو بكر معه احتمل أبو بكر ماله كله خمسة آلاف درهم أو ستة ٠ فدخل علينا جدي أبو قحافة وقد ذهب بصره ٠ وقال : والله اني لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه ٠ قلت : كلا يا أبت ، انه قد ترك لنا خيرا كثيرا ، وأخذت أحجارا فوضعتها في كوة البيت الذي كان أبي يضع فيه ماله ، ثم وضعت عليها ثوبا ، ثم أخذت بيده وقالت : يا أبت ، ضع يدك على هذا المال ٠ فوضع يده عليه وقال : لا بأس اذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن ، وفي هذا بلاغ لكم ٠ ولا والله ما ترك لنا شيئا ، ولكني أردت أن أسكن الشيخ » ٠

وكذلك أقبل الصديق على الاسلام وهو عالم بالذي هو مقبل عليه ٠ لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه ان الأمر أهون مما توقع ، وان البلاء بعقيدته التي تحول اليها أخف مما وجد ، فلم يجد نصبا وكان يرجو الراحة ، ولم يجد غرما وكان يرجو المنفعة ، ولم يجد عداء من قومه وكان يرجو منهم المودة ، ولم يجد خطرا وكان يرجو السلامة ، وانما دخل في شيء يتوقع ما هو ملاقيه فيه ، ويراه دون حقه من المصابرة والحفاظ والاحتمال لأنه الدين ٠ لأنه الحياة الفانية والحياة الباقية ٠ لانه الحق ودونه الباطل ، والهدى ودونه الضلال ٠

فما أقبل انسان قط أصدق من هذا الاقبال ، وما تأهب انسان قط لبلاء في سبيل ضميره وربه أعظم من هذه الأهبة ، وما نفس الصدق عند انسان قط أغلى من هذه النفاسة ٠ فهي سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل صادق ، وان أناسا ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون في سبيل الصدق برزق يوم ولا براحة ساعة ٠

انه الصديق ٠

وما وصف بكلمة واحدة هي أجمع لخلائقه من كلمة الصديق ٠

ولقد رأينا أناسا من الناقدين يستنكرون على عربي في

الجاهلية أن يقوم الهداية الدينية بهذه القيمة التي لا تعلوها قيمة •

ولكنهم مخطئون •

لأن العربي الجاهلي عرف « الحق » وعرف بيع الحياة في سبيل « الحق » كما يراه : حق الجوار أو حق العرض أو حق الشرف والذمار •

وأبو بكر خاصة كان ممن يرعون الحقوق ويكفلونها لأهلها ، وكان ممن يكرهون البغي وينقمونه على أهله •

فاذا عرف « الحق » الأكبر فغير عجيب أن يرعاه هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة ، وهو مهيأ لعرفانه بكرم الخليقة وطيب النحيزة (١) واستقامة الفطرة وصفاء القريحة •

وقد عاش أبو بكر في زمن كان عقلاؤه في كل أرض يتطاعون الى هداية من السماء ، ويخيل الينا آن انتظار الهداية من السماء لم يطل في زمن من الأزمان ، ولا سيما الزمن الذي يعم فيه الفساد وتعيا به حيلة الانسان ، وحسبنا أننا بعد الاسلام رأينا أناسا يترقبون « المهدي » الذي ينشر العدل كلما عم الجور ، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر ، ويهدي الى سواء السبيل كلما استحكم الضلال •

وقبل البعثة المحمدية كان آناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل اسماعيل بن ابراهيم

وسمع أبو بكر ما سمع من هذا في رحلته الى اليمن ، ورحلته الى الشام ، وفي حديثه مع ورقة بن نوفل ، وحديثه مع المنكرين لظلام الجاهلية والمستشرفين الى كل نور جديد •

وهذا محمد بن عبد الله يدعوه دعوة ابراهيم : دعوة الأب الأكبر الذي يشمل العرب جميعا ، ومن فوقها دعوة الله التي تعم جميع الناس •

فمن أولى منه بالدعوة ، ومن أولى منه بالتصديق ؟

انه استشار خلقه القويم فهداه ، وان مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهداية ، حيثما وازن وقابل فأحسن الموازنة والمقابلة

---

(١) النحيزة : الطبيعة •

بين جميع ما ينتظم فيها من شئون ذلك الزمان ٠

كان أبو بكر في اهتدائه الى الاسلام هو أبو بكر في نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده ٠

وكان أبو بكر في اسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من ايمان المصدق بدينه ، وحماسة المعجب ببطله ٠

كان اسلامه اسلام الرجل الكريم السمح الودود ٠ يستمسك بالصدق والتصديق ويخلص في الاعجاب بالبطل الذي هداه اخلاصا لا شية فيه ٠ فهو يلين في كل حالة ويشتد في حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء : مرجعها الى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الاعجاب ٠

قال بعد مبايعته بالخلافة : « انما أنا متبع ولست بمبتدع » فجمع اسلامه أجمع صفة وأحسنها في هذه الكلمات ٠

وربما عرض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع ، فيخرج الى الناس يسألهم ثم يقول : « الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا » ٠

فلا يبتدع الا بعد استقصائه كل مرجع من مراجع الاتباع ٠

وفي هذا هو شديد غاية الشدة ، بعيد من اللين والهوادة غاية البعد ، وهو الرجل الذي اتسم في حياته كلها باللين والهوادة ٠

فتصديق المؤمن واعجاب المعجب ببطله العزيز عليه ، هما تفسير كل شدة يشتدها الصديق الحليم الودود ٠

هو شديد في تسيير جيش أسامة لأن النبي عليه السلام ولاه وأمر بتسييره ، وما يكون له أن ينزع رجلا استعمله رسول الله « ولو تخطفته الذئاب ولم يبق في القرى أحد غيره » ٠

وهو شديد في حرب الردة ، لأنه لا يترك عقالا كان رسول الله يأخذه من المرتدين ٠

واذا رأيناه بين الهوادة والشدة في محاسبة بعض الناس فالشدة التي مرجعها التزام جادة الرسول والاقتداء بقدوته في كل شيء هي أقرب التفسيرين الى فهم عمله ، وهي أغلب في طبعه من اللين والهوادة ، على اشتهاره بهما في كل ما عدا ذاك ٠

فالهوادة ليست هي التي تفسر لنا عمله في ترك جزاء خالد

ابن الوليد على البناء بامرأة مالك بن نويرة ، والبناء ببنت مجاعة في حرب بني حنيفة ، وتوزيع الأموال وتأخير الحساب ، وانما الذي يفسر لنا هوادته معه أنه سيف من سيوف الله ، ولا يعزل أبو بكر من استعمله الرسول وله مندوحة عن عزله ·

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده في جناية واحدة استصغر فيها العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى ، وذلك اذ كتب اليه المهاجر بن أبي أمية المخزومي يقول له : ان مغنيتين تغنت احداهما بثلب رسول الله ، وتغنت الأخرى بثلب المسلمين ، فقطع يديهما ونزع ثناياهما لتكفا عن الغناء · فخطأه أبو بكر لأن الاولى كانت أحق بالقتل ، وأن الثانية كانت أحق بالصفح ··· وأوصاه أن يقبل الدعة وأن يحذر المثلة « فانها مأثم ومنفرة الا في قصاص » ·

ففي تعظيم النبي كل شدة قليلة ، وفي أمر غيره كل صفح جائز بل مستحب محمود ، وليست هي المحبة التي يعوزها التفكير قد فرقت هذه التفرقة بين العقابين ، لأن هجو النبي قدح في لباب الدين وأس النظام ، وهجو المسلمين وزر قد يأتيه المسلم في خلاف بينه وبين قومه ، ولكنها على هذا حادثة قد عرضت لنا طبع أبي بكر في حالتيه : لين وهوادة ، واعظام لا لين فيه ولا هوادة ، وانما هي الشدة كأشد ما تكون ·

وربما تهيب الأمر فيه نفع لا شك فيه اذا لم يسبقه النبي عليه السلام الى صنعه أو صنع مثله ، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع ، كما تهيب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر ، فقال « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » ثم استصوب جمعه لما فيه من خير ·

فسماحة أبي بكر كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والاخذ بالحيطة واستبقاء المودة ·

وشدة أبي بكر كانت طبيعة فيه ، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه ، والاعجاب بمن هو أهل لاعجابه ، ولن ترى شدة في انسان كشدة الرجل السمح في تنزيه صفيه وحبيبه وموضع اعجابه ، ولا حرصا في انسان كحرصه على القدوة بذلك

الصفي الحبيب المعجب به ، واجتناب التخلف عنه والحيد عن طريقه ٠

وفيما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر الا حلما غالبا ورحمة غالبة ، ولم تنفرج أمامه طريقان : احداهما الى العفو ، والأخرى الى البطش الا أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية ٠

شاوره النبي عليه السلام في أسرى بدر فقال : « يا نبي الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان ، واني أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضدا » ٠

وشاوره حين اجتمعت قريش لصده وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس : « أشيروا أيها الناس علي ٠ أترون أن أميل الى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت ، فان فاتونا كان الله قد قطع علينا من المشركين ، والا تركناهم محروبين ؟ » ٠

فقال أبو بكر : « يا رسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت ، لا تريد قتال أحد ولا حربا ، فتوجه له فمن صدنا قاتلناه » ٠٠٠ يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصده ٠

وشيع جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب الى القتال : « لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة ٠ وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواما قد فحصوا (١) أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقا ٠ اندفعوا باسم الله » ٠

وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا على قوة الدين في نفوس من آمن به ٠ الا أننا لا نعلم بينها شاهدا أصدق في الدلالة

---

(١) فحصوا : كشفوا ٠

على تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام اخوانه في اعتقاده • ومن شواهد ذلك في اسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدى الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث اليه عمرو بن العاص برأس بنان بطريق الشام أنكر فعله أشد انكار ، ولم يخفف من انكاره قول عقبة بن عامر له : انهم يصنعون ذلك بنا ، بل قال : أيستنون (١) بفارس والروم ؟ لا يحمل الي رأس • انما يكفي الكتاب والخبر •

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال • وهذا بلاغ الدين القويم في نفس انسان •

وهكذا كان مسلكه مع اخوانه وأعدائه ، وفي لينه وشدته ، وفي مفترق كل طريقين : احداهما الى الشدة وأخراهما الى اللين • فقال النبي عليه السلام يصفه ويصف عمر : « •• ان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : فمن تبعني فانه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم ، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : ان تعذبهم فانهم عبادك ، وان تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ••• و « ان مثلك يا عمر مثل نوح قال : رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا • ومثلك مثل موسى قال : ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » •

ولم يكن عمل من أعماله في قضاء حقوق دينه وآداء فرائضه الا يدل على هذه الخليقة التي اتصف بها في جملة حياته الاسلامية ، وهي المبادرة في كل ما فيه قدوة بالنبي عليه السلام ، والأخذ بالحيطة في كل ما يحتمل التعجيل والتأجيل •

سأله النبي : متى توتر (٢) ؟ قال : من أول الليل •

وسأل عمر ، متى توتر ؟ قال : من آخر الليل •

فقال لأبي بكر : أخذت بالحزم ، وقال لعمر : أخذت بالعزم •

وصلاة الوتر كما لا يخفى تقضى من بعد العشاء الى ما قبل

---

(١) يستنون : يتبعون •

(٢) متى توتر : متى تصلي صلاة الوتر وهي ثلاث ركعات بعد صلاة العشاء •

الفجر ، ويرى بعض الأئمة أنها فريضة ، ويرى بعضهم أنها سنة يقتدى فيها بالنبي ·

فأبو بكر يبادر الى أدائها ويأخذ بالحيطة مخافة أن يفوته أوانها اذا أجلها ، وعمر الشديد على نفسه الواثق من عزيمته يعلم أنها لن تفوته وأنه لن يغلبه عليها غالب من النوم ، فيؤجلها الى ما قبل الفجر ، وهو واثق من أدائها في أوانها ·

لهذا قال النبي لأبي بكر : انه آخذ بالحزم وهو الأحوط ، وقال لعمر انه أخذ بالعزم وهو الاقوى ، وعرف صاحبيه في هذه الفارقة الصغيرة كما عرفهما في كبار الأمور وصغارها ·

وان العقيدة التي تتسع لهذين الرجلين ولهذين الخلقين ولهذين العقلين ، ثم يكون كلاهما اماما فيها عظيما في اتباعها ، لهي عقيدة تتسع لكثير ·

● ❋ ●

الصديق والدولة الاسلامية

قلنا في كتابنا « عبقرية عمر » ان الدولة الاسلامية « تأسست في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث . فشرع السنة الصالحة في توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه في حرب الردة ، وشرع السنة الصالحة في تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح . فكان له السبق على خلفاء الاسلام في هذين العملين الجليلين » .

« الا أننا نسمي عمر مؤسسا للدولة الاسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق في أعمال الخلافة . لأننا « أولا » لا نجد مكانا في التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام ، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة في اقامة دولة كالدولة الاسلامية ، اذ الشأن الأول فيها للعقيدة التي تقوم عليها وليس للتوسع في الغزوات والفتوح . وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لدولة الاسلام قبل ولايته الخلافة بسنين ، بل كان مؤسسا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الاسلام وآذانه وأعزها بهيبته وعنفوانه ... » .

الى أن قلنا « ... انه كان في يوم اسلامه آخذا في تشييد هذا البناء الذي تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء » .

والذي قلناه عن عمر في تأسيسه بناء الدولة الاسلامية قبل خلافته يصدق على أبي بكر بهذا المعنى منذ يوم اسلامه قبل سائر الصحابة وسائر الخلفاء .

ويكفي من ذلك أن نذكر الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وضعفائهم على السواء . فقد كان لاسلامه أثر بالغ بين السادة ، كما كان له أثر بالغ بين العبيد والأتباع ، وما هو الا أن علم الوجوه والعلية من فضلاء قريش أن أبا بكر رضي

الاسلام دينا حتى كان للقدوة به حجة عندهم أقوى من حجة البيان والاقناع : ان الدين الذي يرتضيه رجل كأبي بكر في مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامة قصده وسلامة صدره لدين جدير بالاستماع اليه والنظر في دعوته ، وان النظر في دعوته وفيما بينها وبين العقائد الجاهلية من البون الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان ، ولا سيما عند من خلا من الغرض في دوام العقائد الجاهلية واحباط الدعوة الجديدة أو كل دعوة جديدة كائنا ما كان حظها من الخير والفلاح ·

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة في الاسلام ، أسلم على يديه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبي وقاص ، وعثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله بن عبد الأسد أبو سلمة ، وخالد بن سعيد ، ومنهم من أسلم وهو يفع أو شاب ناشيء كسعد والزبير ، فكانا فتوة للاسلام حين جد الجد واشتدت سواعده بسواعد فتيانه الأبرار ·

واشترى نفرا من العبيد المرهقين : منهم بلال بن رباح مؤذن النبي عليه السلام · وكان سيده يخرجه في حمارة القيظ (١) فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ويلقي بصخرة عظيمة على صلبه ويدعه وهو يقول : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد · فلا يزيد على أن يقول : أحد · أحد ، ويرددها حتى يوشك أن يغيب عن وعيه من ألم العذاب · اشتراه أبو بكر أو استبدله بما يساوي خمس أواق ذهبا فقيل له : لو أبيت الا أوقية لبعناك ! وقال : ولو أبيتم الا مائة أوقية لأخذته ، ومضى في شراء العبيد والاماء بما يطلبه سادتهم من ثمن يغالون فيه ليعجزوه ويدخلوا الندم على نفسه ، وهو لا يبالي ما يبذل من ماله وجهده لينقذ أولئك المساكين من أيدي المشركين ويريحهم من قسوة السادة المتجبرين · فكان كسبه لقلوب الضعفاء أربح للاسلام وأجدر بسمعته ورحمته من كسبه قلوب العلية الأعلام ،

---

(١) حمارة القيظ : شدة الحر ·

وأبلغ في التدين والفضيلة من اقناع بنافذ الحجة وابلاغ بصادق الكلام • ولعل الدعوة الجديدة كسبت بين الأمم بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته بهداية الشرفاء الذين اقتدوا به وذهبوا الى النبي من طريقه •

ولم يزل في كل عمل من أعماله منذ أسلم الى أن تولى الخلافة مؤسسا لهذا البناء الشامخ الذي كان هو أول من قام عليه بعد بانيه • فالدعوة الصريحة الى الاسلام في المسجد بمسمع من قريش ، والهجرة مع النبي من داره ، وبذل المال في البعوث وغير البعوث ، وتيسير القدوة للمقتدين باسراعه الى التلبية والتصديق كلما التبس الأمر واضطربت الأفكار ، ومحاربته قريشا بعلمه واطلاعه على الانساب كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه — بل كل ما عمل منذ أسلم الى أن تولى الخلافة ، فهو في جملته ركن من أركان الدولة الاسلامية يجعله بالحق مؤسسا لها مشاركا في بنائها ، بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة •

ثم كانت البيعة بالخلافة ••

وكانت بعثة أسامة بن زيد ، وكانت حروب الردة ، وكانت بعوث العراق والشام ، فقام على هذه المآثر الثلاث التي لا يقضي حقها من الاكبار كل ما قام بعد ذلك من بناء •

بعثة أسامة وما بعثة أسامة ؟ ••• يستصغرها بعض المؤرخين المحدثين ويقولون انها من نوافل البعثات ، لأنها بدأت وانتهت بغير فتح وبغير ثمرة وبغير حظ كبير من الغنائم تلجىء اليه ضرورة من الضرورات •

وانهم لمخطئون •

وان الصديق لعلى صواب •

ولقد يكون في صوابه الهام أو تكون فيه رؤية وقصد مرسوم ، ولكنه سداد على كل حال ، ووجهة قويمة هي أدنى الوجهتين الى النفع والصلاح •

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة في الدولة الاسلامية هي في ذلك الحين خير السياسات •

كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله •

وكانت الطاعة ـ جد الطاعـة ـ مناط السلامة وعصمـة المعتصمين من الخطأ الأكبر في ذلك الحين ٠

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر فالطاعة ـ بل الطاعة الصارمة ـ هي العصمة التي ليس من ورائها اعتصام ٠

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر في ذلك الحين لا مراء :

كان النفاق يطلع رأسه في مكة والمدينة ، وكانت القبائـل البادية تتسابق الى الردة في أنحاء الجزيرة ، وكان جند أسامة نفسه يود لو استبدل به أميرا غيره ، وكان أسامة أول من يشك في طاعة القوم اياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه ٠

تمرد ، أو نذير بتمرد ، في كل مكان ٠

وطاعة واجبة هنا حيث نبع التمرد ، أو لا سبيل الى واجب بعد ذلك يطاع ٠

طاعة أو لا شيء ٠

فان بقيت الطاعة فقد بقي كل شيء ٠

وهنا تسعف الصديق طبيعة هي أعمق الطبائع فيه ، أو هي العبقرية الصديقية في أوانها ، وعلى أحسن حال تكون ٠

هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب ٠

وهنا يقول وقد خوفه الخطر على المدينة والجيش يفارقها :

« والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله ! ولو أن الطـير تخطفتنا ، والسباع من حول المدينة ، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة ! » ٠

كلمة لو قالها غير أبي بكر لكانت كبيرة ، ولكن الذي يقولها أبو بكر وبنته أعز أمهات المؤمنين ٠

فلا خطر اذن أكبر من خطر الاجتراء على حق الطاعة في تلك الآونة ، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات ٠

ومن المؤرخين المحدثين من قال ما فحواه : ان بعثة أسامة انما أرسلت ثأرا لأبيه زيد الذي قتل في معركة مؤتة ، وان قاتله في تلك المعركة قد مات لتوه ، أفما كان ارجاء البعثة من المستطاع وقد أدرك ثأر القائد القتيل ؟

ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأي في بقاء البعثة بالمدينة بعد موت النبي عليه السلام ، وفي مقدمتهم أسامة ٠

ومنهم من كان يرى أن يتقدم للقيادة من هو أسن منه وأخبر بفنون القتال ، ومنهم عمر بن الخطاب ٠

أما أبو بكر فقد رأى العصمة ـ حق العصمه ـ في رأي واحد لا رأي قبله ولا بعدها ، وهو الطاعة في غير لي ولا هـوادة ولا ابطاء ، ولو لم يكن التمرد هو الآفة المحذورة في تلك الاونة لقد كان غير الرأي أصوب ، ولكنه كان آفتها التي لا آفة مثلها ، ثم لا خطر ان سلمت الدولة من شرها ، فلتكن الطاعة اذن هـي الصواب ، وهي الملاذ ٠

وقد ضرب المثل الأول في الطاعة التي أرادها ٠ فشيع البعثة وهو ماش على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره ٠ فقال أسامة : يا خليفة رسول الله ٠ والله لتركبن أو لأنزلن ٠ فقال : والله لا تنزل ، ووالله لا أركب ٠ وما علي أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ٠

ثم استأذن أسامة قائلا : ان رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر باذنه : باذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك ، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده ٠

ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠٠٠ ولا تقصرن في شيء من أمر رسول الله ٠

أفكان المؤرخون المحدثون على صواب في أمر هذه البعثة حين قالوا انها من النوافل بعد مقتل القاتل لزيد أبي أسامة ؟

انهم لعلى خطأ في كل تقدير قدروه ولو جاريناهم فحصرنا أغراض البعثة في ذلك الغرض الوحيد ، لأن مقتل قائد في معركة ليس بالجريمة الفردية التي يعاقب عليها القاتل وحده ، وانما المسألة هنا مسألة الجيش كله ، وهيبة الأمة التي أرسلت ذلك الجيش وتمثلت فيه بقوتها ومناعة حوزتها ، فان لم يقع في روع الأعداء المقاتلين أن ذلك الجيش قوة تهاب وتنال حقها من الثأر فقد بطل الغرض كله من القتال ٠

وفي هذه البعثة بعينها ، ماذا كان يحدث لو أن قبائل غسان وقضاعة استضعفت شأن المسلمين وفي أيديها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم ؟

كل شيء جائز أن يكون ٠

وأوله اغراء الروم بالهجوم ولهم عون من تلك القبائل ومن يجتمع اليها من المجترئين والمتحفزين ، ولما تقعدهم عن الاجتراء والتحفز هيبة جيوش الاسلام ٠

ولقد أدرك أناس في عصر أبي بكر صواب الرأي في انفاذ تلك البعثة بعد انفاذها وعودتها ٠ فشاع في الجزيرة العربيـة خبرها ، وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيـل يريدون الارتداد الا تخوفوا وسكنوا : وقالوا فيما بينهم : لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرج من عندهم هؤلاء ٠

فاذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزا لدفع خطر ، فارساله كذلك جائز لدفع خطر مثله ، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة ، وهو يومئذ ألزم الدروس ٠

ثم تكرر هذا الدرس في أوسع نطـاق لأنه نطـاق الدولـة الاسلامية كلها في ذلك الحين ، وجاءت حروب الردة التي هـي مفخرة أبي بكر الكبرى غير مدافع ، أو هي مفخرته الخاصة التي انفرد بها في تاريخ الدعوة الاسلامية بغير شريك ٠ فكان « هو نفسه » كما يقول الغربيون في تعبيراتهم حين يذكرون الأعمال التي تدل على صاحبها بجميع خصائصه ولباب شعوره وتفكيره ، وتبرزه على حقيقته التي لا مماراة فيها ، خلافا لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه « الحقيقة » موضع التباس أو اختلاف ٠

ففي حروب الردة كان أبو بكر رضي الله عنه هو أبا بكر على سوائه وجلائه ، ولم يكن موقفه فيها غريبا كما يسبق الى الذهن للوهلة الأولى حيثما يخطر الذهن أنه الرجـل الوديـع الرفيق ، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والبأس الشديد ٠

غضب الصديق رضي الله عنه في حروب الردة غضبته التي لا بد أن يغضبها والا فما هو بغاضب ٠

أثارته ردة المرتدين لأنها مسته في كل ما يثيره ، وأصابته في كل ما يعزه ويغار عليه ٠

فهنالك الصديق المحب لصديقه ، والمعجب الغيور على ذكرى

بطله ، يثيره أن يغدر الغادرون بعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل ، ولما تمض له في قبره أيام أو أسابيع ٠

وهنالك المسلم « الصديق » الذي آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون ، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فخاطر على ذلك النصر بالمال والميثاق ، ولم يخامره الشك لحظة أنه الرابح لا محالة في ذلك الخطار (١) ٠ وكذلك غضب في حرب الردة غضبة الواثق من الحق ، الواثق من الغلبة ، الواثق من العاقبة ، لأنه سمع البشارة السماوية لينصرن الله الاسلام على الدين كله ، فاذا حارب في سبيل الاسلام فهو لا محالة على حق وهو لا محالة منصور ٠

وهنالك الرجل « الدقيق التكوين » يقابل بالاستخفاف في أول خلافته وقد راض نفسه طوال حياته على المروءة والكرامة والوقار ، أنفة من الاستخفاف وكراهة للصغر والاستصغار ، فاذا بهم يستقبلونه بما أشاح (٢) عنه طوال حياته ، واذا بالأمر صريح بالمقال فضلا عن صراحته بلسان الحال : هم يستكثرون عليه كنيته أبا بكر فيكنونه أبا الفصيل ، وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوعدين : لترونه غدا أبا الفحول ٠

وهنالك الرجل الذي فيه من وثاقة العزم ما قمع به ثورة الحدة وهي أصيلة في تركيبه ، ومن كان له ذلك العزم فهو منجده حين يحتاج اليه ، وما كان محتاجا اليه قط لو انه استغنى عنه في فتنة الردة ، وهي تفاجئه بالغضب المثير ٠

وهنالك الرجل الذي كان مثلا في الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقة يقاس عليها ، وقد سبقت هذه السابقة في فريضة من فرائض الاسلام وان لم تكن فريضة الزكاة : سبقت في فريضة الصلاة ، وذهب أناس من المثقفين يعرضون على النبي اسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة ، فقال عليه السلام : « انه لا خير في دين لا صلاة فيه » ٠ وكذلك لا خير في دين لا زكاة فيه ، فاذا جاء المرتدون يزعمون أنهم مسلمون يقبلون فرائض الاسلام ولا يقبلون الزكاة فليس أبو بكر بالذي يقبل منهم ما يزعمون ٠

---

(١) الخطار : ما يراهن عليه ٠ (٢) أشاح : أعرض ٠

انما كان أبو بكر اذن أصدق ما كان لنفسه وسرائر مزاجه يوم قابل الردة بدرس الطاعة التي لا هوادة فيها ، ولم يكن في باطن الأمر غريبا عن المعهود فيه ، وان لاح في ظاهر الأمر أنه جاء بالغريب من رجل وديع رفيق ٠

ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط في حادث من حوادث صدر الاسلام ، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الاسلام الأولى في مقاومة الشرك ودعوة الاسلام الثانية في مقاومة الارتداد فانما كانت الغلبة على فتنة المرتدين فتحا جديدا لهذا الدين الناشىء ، كأنما استأنفت الدعوة اليه من جديد ٠

ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها ، ولا سيما النقاد المغرضين الذين انحرفوا بها عمدا ليتسللوا منها الى الطعن في نشأة الاسلام ٠ فقالوا : ان ارتداد الأعراب انما كان دليلا على أنهم قد أسلموا مكرهين ، فما عتموا أن وجدوا سبيلا الى النكصة (١) على أعقابهم حتى نكصوا مسرعين ٠

والمسألة أوضح من هذا لو أراد أولئك النقاد طريق الوضوح ٠

المسألة أقرب شيء الى طبائع الأمور في أشباه هذه الأطوار من كل دين ومن كل مذهب ومن كل دعوة تتناول الناس عامة وخاصة ، بل من كل فكرة تخامر الأذهان والقلوب حتى ما كان من قبيل الحكمة والفلسفة والدراسات العلمية التي يعنى بها خاصة الباحثين ولا تتسرب دعوتها الى السواد ٠ فماذا حدث في الحكمة بعد سقراط ؟ وماذا حدث في مذهب النشوء بعد داروين ؟ وماذا حدث في علم الأخلاق بعد كانت أو بعد بنتام أو بعد برجسون ؟

فالذي حدث من ردة العرب هو الطبيعي المنظور أن يحدث ، والذي تخيله النقاد المغرضون واجبا مقررا هو الغريب الذي لم يحدث قط في دعوة من الدعوات ٠

والا فما هو ذاك الذي كان يتخيله أولئك النقاد المغرضون ؟ ٠

---

(١) النكصة : الرجوع والاحجام ٠

أكانوا يتخيلون أن دينا جديدا يملك الناس جميعا في الجزيرة العربية فيسري الى كل نفس ، ثم يسري من كل نفس الى جميع بواطنها وخفاياها فلا يبقي فيها بقية للنكسة والارتداد ؟ أكانوا يتخيلون ذلك الدين مقتلعا في مدى تلك السنوات القليلة كل أثر لأطماع الخليقة الآدمية وكل حنين في قلوب الزعماء الى الجاه القديم ، وكل فضلة من فضلات الجاهلية ، وكل باب من أبواب الدسائس التي تنفذ الى جزيرة العرب من طريق الدول الأجنبية والعصب الداخلية ؟ ... أكانوا يريدون من الأعراب بعد بضع سنوات أن يوغلوا في الاسلام أشد من ايغال قبائل نجران أو الغساسنة في الدين المسيحي بعد بضعة قرون ؟

ان تخيلوا ذلك فاللوم على الخيال المضلل وليس على الواقع ولا على العقل السليم ولا على الاسلام .

وما من شيء أحرى أن يدل على النشأة الطبيعية في الاسلام من هذه العوارض الطبيعية التي عرضت له في حياة نبيه وبعد موته ، وأولها حرب الردة وما اقترن بها من عوامل النكسة والاضطراب .

لقد كان النبي مناط الاستقرار في الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة في دينه ، أو كان كما قال الشاعر :

فانك موضع القسطاس منها   فتمنع جانبيها أن يميلا

واذا غاب « مناط الاستقرار » أو موضع القسطاس فماذا يكون ؟ بل ماذا يمكن أن يكون ؟

يكون نقيض الاستقرار لا جرم .

أو يكون الميل هنا والميل هناك ، ولو كان العارض الذي طرأ قد عرض لأجسام من المادة لا تعرف الدين باختيار ، ولا تعرفه باضطرار .

فلما غاب « مناط الاستقرار » أول مرة حدث ما لا بد أن يحدث ، وطرأ التقلقل الذي لا مناص منه في كل بيئة ريثما يزول الأثر الطارىء وترجع الأمور الى نصاب .

فعرض لكل طائفة من الناس تقلقل يناسبها ويجري في مجراها ٠

تقلقل الأنصار وهم مسلمون حق مسلمين ، واجتمعوا في سقيفة بني ساعدة يبتون بتهم في مصير الخلافة ، لأنه مصير لا بد لهم من البت فيه ٠

وتقلقل المهاجرون من بايع منهم أبا بكر ومن لم يبايعوه ، ومنهم عترة النبي وأقربهم اليه أو أعظمهم ايمانا بدينه والغيرة عليه ٠

وتقلقل في مكة أناس قريبو عهد بالنفاق ، فهموا بالعصيان لولا نذير من ولي السلطان ٠

أما القبائل فيما وراء ذلك فكان لكل منها نصيب من التقلقل يناسب نصيبها من القرب والبعد والمودة والجفاء ٠

فأقربهم الى مهد الاسلام كانوا يخلصون للنبي ويخرجون على من ولي الحكم بعده ٠

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا   فيا لعباد الله ما لأبي بكر ؟

وأناس منهم آمنوا بالزكاة ولم يؤمنوا بمن يؤدونها اليه ، واحتجوا بآيات من القرآن الكريم حرفوها الى المعنى الذي أرادوه ، ومنها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم » ٠٠٠ قالوا : فلسنا ندفع زكاتنا الا الى من صلاته سكن لنا ! وأبوا أن يدفعوها وان علموا أن دفعها فريضة من فرائض الدين ، فهم لم ينكروا الفريضة ولكنهم أنكروا الجباة ٠

أما الأبعدون من مهد الاسلام فكان لهم تقلقلهم الذي يعرض لكل بعيد لم يسكن قط الى قرار ، وانما هو في اضطراب مستور يتربص أن يثب الى الجهر ما تهيأ له وثوب ٠

فأبناء اليمن كان لهم ملك قديم ، وكانت لهم أسر معرقات في الحكم تتداوله تارة بسلطان الحبشة ، وتارة بسلطان فارس ، وحينا بين هذا وذاك بسلطان أهل البلاد ، وكانت لهم كهانة تمتزج بكل عقيدة من العقائد الكتابية وغير الكتابية ٠ فلما اضطرب بينهم ميزان الأمور برز كل عامل من هذه العوامل في

الفتنة بأثر من آثاره ، ونجح بينهم الأسود العنسي صاحب النبوة فيهم ــ وهو مسخ مشوه ــ لأن التشويه كان من آلات الكهنة والسحر عندهم ولم يكن من عوائق النجاح في أمثال هذه الدعوات ٠ فكان وفاقا لشروط الكهانة اليمنية على شبه من كاهنهم « سطيح » الذي قيل فيه انه كان لحما بغير عظم ، أو كان من لين العظام بحيث يدرج جسمه كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه ، وهي مع هذا تمس باليد فيؤثر فيها المس الخفيف لفرط لينها ، وعلى شبه من كاهنهم « شق » الذي سمي بهذا الاسم لأنه أشبه بنصف انسان مشقوق لنحافته وانسلاخ أعضائه ٠ فكانت حقارة الأسود العنسي آلة من آلات نجاحه تبطل العجب ولا تدعو اليه ، كلما استعظم أحد أن يظفر مثله بما ظفر به من الفوز العاجل في بداية الفتنة اليمنية ٠

وحيثما رجعت الفتنة الى مطامع العنسي وأمثاله من المشعوذين الطامحين الى الصولة فقد بدأت طلائعها من أيام النبي عليه السلام في أنحاء متفرقات من الجزيرة ، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الاسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة اصلاح لخير الناس ، وكل ما عقلوه أنه حيلة كاهن أفلحت فحق لهم أن يطمعوا في الفلاح لأنهم كهان لا تعوزهم وسائل السحر وحبائل الخديعة ٠ فتطلعت رؤوس الفتنة من هنا وهناك والنبي عليه السلام بقيد الحياة ، الا أنها لم تتفاقم ولم تبلغ مداها من الانتشار في حياته عليه السلام ٠

ولكنها تجمعت الى يوم الرجة التي ارتجتها الجزيرة العربية بعد فراقه هذه الدنيا ٠ وهي رجة لا محيص عنها ٠ فما كان معقولا ولا منظورا أن يحدث هذا الحادث الجلل بغير رجته التي تقترن به لا محالة ، واذا وقعت الرجة فما كان معقولا ولا منظورا أن تقع على غير هذا المثال ٠

وغاية ما يفهم من هذه الرجة التي لا غرابة فيها أنها الأثر المعقول المنظور لمطامع الطامعين وخلائق الأعراب وذوي الجهالة من أهل البادية في كل جيل ٠ فما عرف التاريخ قط أناسا منقطعين للبداوة الأولى الا عرف منهم الاستعداد لأمثال هذا الانتقاض كائنا ما كان الدين الذي ينتحلونه والزمن الذي قضوه

في انتحاله · وربما مضت مئات السنين على قبيلة من البادية المغرقة في البداوة وهي تدين بالمسيحية أو الاسرائيلية ثم تنقلب مثل انقلاب الردة في رجة من الرجات النفسية أو الاجتماعية التي تشبهها ، ولا يستغرب العالمون بطبائع الناس هذا الانقلاب بعد مئات السنين كما استغرب أناس أن ينقلب بعض أهل البادية على الاسلام أو على دولة الاسلام ، ولما ينقض على دخولهم فيه عشر سنين ·

على هذه الحقيقة ينبغي أن تفهم فتنة الردة انصافا للتاريخ ان لم يكن انصاف الدعوة المحمدية مما يعني أولئك المستغربين ·

ولانصاف التاريخ ينبغي أن تفهم هذه الفتنة على أنها أصدق امتحان للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات ·

فاذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت عن الايمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والايثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سأله : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمنا · انه ليس رجل منا الا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله ، وانا لنلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه !

وقد امتحنت دعوة الاسلام وامتحنت جميع الدعوات التي نهضت لمنافسته بقوة السلاح وقوة الدهاء وقوة العصبية فقضت له بالبقاء وقضت عليها بالفناء · ولو كان نجاح الدعوة الاسلامية نجاح سلاح أو دهاء أو عصبية لقد كان أصغر متنبىء من أدعياء الردة خليقا أن يطمع في ذلك النجاح ، لأنهم بدأوا دعوتهم ومعهم من جموع القبائل التي تعتز بعصبياتها ما لم يتهيأ لصاحب الدعوة المحمدية قبل عدة سنين ، وصدقهم أناس كانوا يقولون ان نبيا كاذبا منهم خير من نبي صادق من مضر أو قريش ·

وأصدق من هذا كله في امتحان الدعوة المحمدية أنها خرجت من فتنة الردة وهي بشهادة الواقع والحق بنية حية تسير على سنن الحياة الصحيحة التي لا زيف فيها ولا اصطناع : يعرض لها الخطر من أسبابه ، وتعرض لها السلامة من أسبابها ، وتنجو كما تنجو البنية الحية القوية حيثما تجمعت فيها عناصر النجاة ·

فليست هي جسما محجبا بالأوهام كما زعم طليحة الكـذاب لجسمه أنه لا يعمل فيه السيف ولا تصيبه السهام • ولكنها جسم صحيح يعمل فيه السيف وله مع ذلك ما يدفع الطعن ويبرىء من الجراح •

ولا شك أن المسلمين لم يواجهوا جوانب الخطر كلها في حروب الردة دون المرتدين الذين أشعلوا الفتنة وصلوا بنارها • فقد كانت حروب الردة فتنة كجميع الفتن التي لا يؤمن خطرها على الفريقين المشتركين فيها فكان فيها جانبها الخطر على أهـل الردة كما كان فيها جانبها الخطر على الاسلام • وما كان منها خطرا على فريق فقد كان فيه للفريق الآخر أمان •

وقد كان أمانها على الاسلام أن المرتدين متفرقون لا تؤلف بينهم وحدة معلومة المقاصد في السياسة ولا في الدين ، وأنهم هددوا المدينة بجموع البادية فأثاروا فيها سليقة الدفاع ووحدوا بين صفوفها وهي موشكة أن تتصدع بين الشيع والأهواء • فعلم أهل المدينة كما علم أهل مكة أنهم مهددون بجائحة من البادية لا يطمئنون بعدها الى مصير ، وهبوا يتعاونون ويتكاتفون لاتقاء تلك الجائحة سواء من بايع الخليفة ومن تثاقل عن البيعـة في أوائلها • وتقدم على رؤوس المدافعين أناس كانوا في يوم البيعة متخلفين ، وجرى القضاء بوقوع أهل الردة في خطأ من أخطاء العجلة كان فيه نفع ــ أي نفع ــ للمسلمين • فهجموا على المدينة مغترين بكثرتهم وقلة المدافعين عنها ، ولم يحسنوا الأهبة للهجوم كما أحسن المسلمون الأهبـة للدفـاع • فثارت حمية الأنصـار والمهاجرين معا للدين الذي آمنوا به ، وثارت حميتهم معا للجوار الذي روعوا فيه ، وكانت هذه الهجمة وبالا على الردة وفاتحة من فواتح الهزيمة ، ولو أنهم قنعوا بالبقاء في باديتهم والتوغل في صحرائهم لقد كان ذلك أدنى الى الحزم من ناحيتهم ، وان لم يكن حتما لزاما أن يفضي بهم آخر الأمر الى نجاح •

وزاد في بواعث الطمأنينة الى جانب المسلمين أن عـاد جيش أسامة سالما موفورا ولما ينقض على مبعثه شهران علـى أرجح الأقوال : عاد بالأسلاب والغنائم من تخوم الروم ولم يقتل منه أحد ولا بدا عليه عناء أو مشقة مما كان فيه •

ولا تجهل قبائل البادية ما هي دولة الروم التي اجترأ الجيش على تخومها في غير مبالاة • انهم يعلمون مـا هي دولـة الروم بالعيان أو يعلمون ما هي دولة الروم بتهويل السماع ، وجيش يذهب الى تخوم تلك الدولة ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص بل يعود بالغنائم والأسلاب ، كيف تستخف به قبيلة هائمة في عرض صحراء ؟ وكيف تخفى دلالة هذا الحادث على أناس اشتهروا بتنسم الاخبار كمـا اشتهروا باستطـلاع الدلائـل على القوة والضعف وعلى الخطر والأمان ؟

ان جيش أسامة قوة ذات بـال في الجزيرة العربية ، ولكنه فعل بسمعته ومعناه ما لم يفعله بقوتـه وعدده • فأحجم مـن المرتدين من أقدم وتفرق من اجتمع ، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم ، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح •

تلك فتنة الردة بجملتها ، وبجانبي الخطر والسلامة فيها •

قابلها أبو بكر رضي الله عنه بأحزم ما تقابل به من مبدئها الى منتهاها ، وعالجها علاجها في كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها •

فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى ، وتعقبها بالحزم يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت الى قرارها •

وأحزم الحزم في تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مردوا على العصيان ولم يستجيبوا نصيـح المودة ولا استجابوا نذير الجزاء ، فقد كان العقـاب أليق شيء بالوزر الـذي اجترموه ومردوا عليه : أناس قد استوهنوا سلطان الدين وبخلوا بالمال فبلغ من شحهم به أنهم أنكروا حقوق الدين كله في سبيل حصة من الزكاة ، فجزاؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك السلطـان مـا يعتبرون به ولا ينسونه مدى الحياة ، وأن يفقدوا المال الذي من أجله تبادروا الى الفتنة واستبقوا الى العصيـان • فاستبيحت ديارهم ومراعيهم ومساقيهم ووهبت عطايا للمجاهدين ، ولان خالد في بعض المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين ، ووضع القصاص فيمن تجـاوزوا منـع الزكاة الى قتـل المسلمـين بين ظهرانيهم ، فلم تأخذه فيهم هوادة بعد اصرارهم على العصيان

واعتدائهم بالقتل واعراضهم عن النصيح والنذير •

جزاء حق لأنه من جنس العمل •

استهانة يقابلها بأس ، وبخل بالمال يقابله ضياع للمال ، ونفس بنفس ، ومجاهدون مخلصـــون يؤثرون الايمـــان على عروض الدنيا أخذا بثأرهم من عصاة غادرين يؤثرون عروض الدنيا على الايمان •

قال أبو رجاء البصري :« دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا ، قلت : من المقبل ومن المقبل ؟ قالوا : هو عمر يقبل رأس أبي بكر في قتال أهل الردة اذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين » •

وأبو رجاء من ثقات الرواة : وكلا الرجلين جدير بما روي عنه من مودة واكبار ، عمر جدير باكبار أبي بكر ، وأبو بكر جدير باكبار عمر اياه ، فالخبر صحيح أو هو كالصحيح ، ان لم يكن فهو حري أن يكون • هنالك ولا ريب أعظم رجلين واجهــا حروب الردة بين عظماء المسلمين في ذلك الحين •

وما كان اثنان قط أقرب منهما في القصد ، ولا كان اثنان قط أبعد منهما في الرأي بما أشارا أول الأمر في شأن أهــل الردة •

ولا ينتهي العجب في موقفهما هذا عند فرط الاقتراب وفرط الابتعاد ، ولكنه عجب عاجب من غير ناحية فيه ، فاذا قدر لهما أن يتفقا مقصدا ويختلفا رأيا فقد كان المظنون أن يتجه عمر الى جانب الشدة ، وأن يتجه أبو بكر الى جانب اللين ، فجاء اختلافهما يومئذ على غير المظنون •

ومهما يكن من حق الدراسة التاريخية في هذا الموضوع فحق الدراسة النفسية يساويه ان لم يزد عليه ، أو ربما كان حــق الدراسة التاريخية مطلوبا لما ينتهي اليه من هذه النسبة النفسية التي هي في غاية العلم الذي نصبو اليه • اذ ليس للتاريخ ولا لغيره من العلوم غاية أشرف ولا أنفس من تعريــف الانســان بالانسان •

كان عمر يقول لصاحبه : يا خليفة رسول الله ، تألف الناس وارفق بهم ! ... كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله . فمن قال لا اله الا الله فقد عصم مني نفسه وماله الا بحقه ؟

وكان أبو بكر يقول : « والله لاقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عناقا (١) لقاتلتهم على منعها » .. ويملكه الغضب فيصيح بصاحبه : « يا ابن الخطاب ، رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ؟ أجبار في الجاهلية وخوار في الاسلام ؟ انه قد انقطع الوحي وتم الدين ، أو ينقص وأنا حي » ؟

فكيف اختلف الصاحبان هذا الاختلاف ؟

أما أن يختلفا فلا عجب ، وأما أن يتصارحا بالاختلاف فلا عجب فيه كذلك .

وانما العجب ــ عند النظرة الأولى ــ أن يجيء منهما الاختلاف على هذا النحو الذي خالف المنظور كما خالف المعهود من طبائع الرجلين ، وهذا الذي يستوقف النظر في طليعة ما يستوقف الأنظار من حروب الردة ، ومن جميع ما اعقب وفاة النبي عليه السلام وقيام الخلافة الأولى .

وصفوة ما يقال في تفسير هذه العجيبة حقيقتان غير عجيبتين : أولاهما أن المعهود من أخلاق الانسان ليس هو الانسان كله ، بل في الانسان شيء كثير مما ليس يعهده الناس منه في عامة أحواله . والحقيقة الثانية أن الخلق المعهود قد يفسر على وجوه كثيرة بعضها موافق للمتبادر الى الذهن وبعضها لا يوافق المتبادر الى الذهن الا بعد انعام واستقصاء .

فالشدة في أبي بكر موجودة تظهر في مناسباتها .

واللين في عمر موجود يظهر في مناسباته .

وأولى المواقف أن يظهر فيهما هذان الخلقان هو الموقف العصيب ، لأنه موقف المراجعة الذي لا يذهب فيه الانسان مع الخاطرة الأولى .

فالموقف العصيب هو الموقف الذي يراجع فيه الانسان نفسه

---

(١) الانثى من أولاد المعز .

ويثوب الى المكنون من أخلاقه فيصل منها الى القرار الذي يخفى على الناس في عامة الأحوال ولا يظهر لهم للوهلة الأولى • فيشتد اللين ويلين الشديد ، أو يبدو كل منهما على الحالين بجميع ما فيه من شدة ولين •

ومن ثم يبدو ما لم يكن بمعهود في عامة الأحوال ••

على أن الموقف الذي وقفه عمر في حرب الردة معهود فيه اذا علمنا أن الخلق الانساني يفسر نفسه على عدة وجوه •

فعمر متصرف بالرأي

وعمر جريء فيما يرى

وعمر وثيق الايمان

وعمر عادل متحرج في عدله •

وهل كان موقفه من المرتدين خلوا من خلق من هذه الأخلاق ؟

ألم يكن فيه تصرف حين أراد أن يؤجل أمر الزكاة الى يوم تتبدل فيه الأحوال ؟

ألم يكن فيه جرأة حين جهر بهذا الرأي ولم يحفل بمداراته ؟

ألم يكن فيه ثقة بأن المصير الى ثبات الاسلام ، وان ضل من ضل وزاغ في الطريق من زاغ ؟

ألم يكن فيه تحرج من قصاص لم يتضح له حقه فيه حتى وضح له ذلك الحق فبطل الحرج ووافق صاحبه في كل ما ارتآه ؟

فهذا هو عمر المعهود ، ولكن بعد انعام واستقصاء •

أما أبو بكر المعهود فنحسب أننا قد بيناه فيما تقدم ، فبينا أن ما صنع من قتال أهل الردة كان أقرب الأعمال الى « الصديقيات » المطبوعة ، وان بدا في النظرة الأولى على غير ذلك ، ونحن لا نفهم الانسان حقا اذا فهمنا أنه يعيش حياته كلها ولا يأتي بشيء يخالف ما عهدناه وانتظرناه • ونحن لا نستغرب الموقفين من أبي بكر وعمر اذا أحضرنا هذه الحقيقة التي هي أقمن شيء بالاحضار في دراسة النفوس الانسانية ، وبخاصة نفوس العظماء •

وقد وضح كل الوضوح أن أبا بكر كان على صواب عظيم •
ولكن لم يتضح كل الوضوح أن عمر كان على خطأ عظيم •

فنحن يخيل الينا اليوم ، أننا لو كنا في عصر الردة لوضح لنا يومئذ ما يتضح لنا اليوم ، ولم نتردد في متابعة أبي بكر الى القتال على يقين أنه الصواب كل الصواب أو أنه الواجب الذي لا مثنوية فيه •

ولكننا لو حضرنا ذلك العصر لجاز كثيرا أن يميل منا الألوف ــ بل ألوف الألوف ــ الى القول بالمسالمة والمتاركة حتى حين ، وجاز أن يعتقد منا الكثيرون أن التربص بالمرتدين حتى يعود جيش أسامة ويثوبوا الى الحسنى أسلم وأحزم ، فان لم يثوبوا الى الحسنى فعدة القتال يومئذ أوفى وأعظم ، وقد يجنح بنا الى هذا الرأي أن الخطر من نكسة المنافقين في مكة والمدينة غير بعيد ، وأن الخطر من غلبة المرتدين غير مستحيل ، وأن القبائل ان بقيت في باديتها فأمرها مستدرك حتى تعالج بالهوادة أو بالنذير أو بالقتال آخر الأمر على ثقة من الغلبة فيه •

ذلك جائز واضح الجواز ، وما كان كذلك فالقول به ليس بالخطأ العظيم ، وان بينت الحوادث أن القول بغيره كان صوابا جد صواب •

وانما الخلاف في أهل الردة من ضروب الخلاف التي يفضها الفقهاء لأن الرأي وحده لا يكفي ولن يكفي يوما لفض خلاف في مسألة حاسمة من مسائل التاريخ •

وقد شاء القضاء ان يكون أبو بكر بطل الاسلام في حروب الردة غير مدافع • فهو صاحب الشرف الأول بين ذوي الرأي وذوي العمل في تلك الحروب • وكأنما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعا على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل • وحسب المؤرخ والنفساني عبرة أن يلحظ هذه الثروة النفسية في صدر الدعوة الاسلامية : دعوة فيها لكل موقف أبطال ، وفي كل بطل منها أهبة لكل حادث طارىء تختلف فيه الأهب (١) والآراء ، وفيهم جميعا التعاون والاخلاص مختلفين ومتفقين •

---

(١) الاهب : جمع أهبة أي العدة •

وما انتهت حروب الردة حتى بدأت في تاريخ الاسلام مرحلة أخرى أجل وأعظم ، تصدى لها الصديق بذلك العزم الذي تصدى به لكل ما عقد النية عليه وآمن بصوابه : اقدام كأنه لا يعرف المبالاة والتدبير ، ومبالاة وتدبير ، كأنهما لا يعرفان الاقدام ٠

كانت المرحلة الأولى تأمين الاسلام في عقر داره ٠

وكانت المرحلة الثانية تأمين الاسلام في حدوده وتخومه ، ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه ٠

ونقول تأمين الحدود ولا نزيد ، لأننا نعتقد أن الصديق رضي الله عنه أخذ في تسيير البعوث الى حدود العراق والشام وهو على هذه النية دون نية الفتح بالسلاح ، وأنه رضي الله عنه قد التزم في سياسته الخارجية خطة النبي عليه السلام في تلك السياسة ، وهي الخطة التي ظهرت في بعثة تبوك ثم في بعثة أسامة بن زيد ، وأصدق ما يقال فيها أنها خطة لا هجوم فيها ولا تهجم ، ولا باعث لها الا دفع الأذى ، وحماية الطريق ، والتمهيد لنشر الدين بالحسنى والبرهان ان تيسر نشره بالحسنى والبرهان ، فان قامت العقبة من قوة طاغية تحول دون ذلك فعلى القوة الطاغية حساب تلك العقبة ، حيثما حان أوان الحساب ٠

ففي غزوة تبوك ــ كما قلنا في عبقرية محمد ــ « عاد الجيش الاسلامي أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال في تلك السنة ، وكان قد سرى الى النبي نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية ، فلما عدلوا عدل الجيش الاسلامي عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة في تجهيزه وسفره » ٠

أو كما قلنا في عبقرية عمر ان دولة الروم كانت ترسل البعوث الى تخوم الجزيرة وتهييج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبي عليه السلام ، وكان المسلمون يعيشون في فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها ، يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبي حيث يقول : « ٠٠٠ وكنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا ، فنزل صاحبي يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابي ضربا شديدا وقال : أثم هو ! ففزعت فخرجت اليه ، وقال : حدث أمر عظيم ٠٠٠ قلت : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟

قال : لا • بل أعظم منه وأطول • طلق النبي صلى الله عليه وسلم نساءه ! » •

وهو حديث يتبين منه مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار •

فلما تولى الصديق رضي الله عنه الخلافة أنفذ بعثة أسامة التي يصح أن تسمى بلغة العصر الحاضر بعثة تأديبية لردع القبائل التي تعيث في الطريق بين الحجاز والشام تأمينا لتلك الطريق وتوطيدا لهيبة الاسلام في نفوس تلك القبائل • فلم تجاوز البعثة هذا الغرض المحدود ولم تلبث أن قفلت الى المدينة بعد أربعين يوما في قول بعض المؤرخين وسبعين في قول آخرين •

أما غزوة فارس فقد كانت استطرادا لحروب الردة في أطراف البحرين ، فكانت القبائل التي تدين لسلطان فارس توالي الاغارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصون منها ويتعقبونها في بلادها ، وكان الصديق رضي الله عنه يجهل اسم القائد المقدام الذي كان يتولى الدفاع والتعقيب في تلك الأنحاء ، فسأل عنه في شيء من العجب : من هذا الذي تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ فعرفه به قيس بن عاصم قائلا : هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد : هذا المثنى بن حارثة الشيباني !

فكان هذا الاستطراد في حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاها من قبائل البحرين والسواد ، ومضت الحوادث شوطا قبل أن تنقلب الى الحرب الضروس بين العرب وفارس في أوسع نطاق ، فلما أرسل الصديق خالدا لنجدة المثنى أمره أن « يتألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأمم » • وتقدم خالد في تأمين الطريق فصالح أهل الحيرة وغيرهم على « أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرا على مسلم من العرب ولا من العجم ، ولا يدلوهم على عورات المسلمين ••• فان هم خالفوهم فلا ذمة ولا أمان وان هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه الى المسلمين فلهم ما للمعاهد ، وعلى المسلمين المنع لهم ••• وأيما رجل منهم وجد عليه شيء من زي الحرب سئل عن لبسه ذلك ، فان جاء منه بمخرج والا عوقب بقدر ما عليه من زي الحرب ••• » •

فمن طلائع الغزوة الفارسية يلوح للمتتبع أنها غزوة فرضتها الحوادث على الخليفة الأول ، فاستجاب لها بما ينبغي أن يستجيب ، وقبل المناجزة (١) حين لم يكن له من قبولها مناص ولا متحول ، ولم ينس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم الأمراء ويدعوهم الى السلام والاسلام ، ويشخص (٢) اليهم من يعلمهم ما هو وصف الدين الذي يدعوهم اليه • فان أصاخوا (٣) اليه فلا حرب ولا عداء ، وان جردوا له السيف رجع معهم الى حكمه الذي نزلوا عليه •

وهكذا قدر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الاسلامية الناشئة في سياستها الداخلية وسياستها الخارجية ، فما صنعه فقد استمر فيه على خطة النبي عليه السلام ، وما صنعه الذين لحقوا به فانما هو نتيجة لازمة لما بدأ فيه •

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه بعينه وهو حظ لا يتاح للكثيرين ممن يفتتحون الدول العظام ولا سيما الشيوخ • فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وفيما هو اخذ في التمام ، وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق في حرب فارس كما قارنه في حرب الردة ، وليس بينهما تفاوت في الاقدام ولا في ثقة الايمان •

ويحق لمن يؤرخ تلك الحوادث ، ولمن يبحث في صفات الصديق ومناقبه ، أن يسأل : ما مبلغ تلك الثقة من الايمان ؟ وما مبلغها من الحساب ؟

انه سير البعوث لاخضاع الجزيرة العربية وهي ترتج رجتها الكبرى وليس معه من الجند الا قلة محدودة من أهل تلك الجزيرة •

وانه سير البعوث الى تخوم فارس والروم وليس معه من قوة غير المسلمين من العرب ، مستثنى منهم في أول الأمر كل من تابوا بعد ردة ، وانه لتفاوت بين القوتين أعظم من التفاوت بين جيش الخليفة وجيوش المرتدين •

أفكانت مجازفة ؟

---

(١) المناجزة في القتال هي أن يتبارز الفارسان حتى يقتل أحدهما •

(٢) يشخص اليهم : يرجع أو يرسل • (٣) أصاخ : استمع وأصغى •

أفكانت يقينا لا تصحبه الروية وهي في الدين الاسلامي مطلوبة مع اليقين ؟

لا ريب أن اليقين كان أكبر العدد التي تقدم بها الصديق في بعوث الردة وفي بعوث فارس والروم على السواء ·

ولا ريب أنه أقصى المسلمين الذين تابوا بعد ردة فلم يلحقهم بالجند الموجهين الى تخوم الدولتين ، لأنه علم أن العدة الكبرى في أولئك الجند هي عدة اليقين الذي لا يتزعزع ولا يدركه الوهن والطمع ·

ولا ريب أن يقين الصديق بنصرة الاسلام على الدين كله في يوم من الأيام قد كان أقوى يقين سكن في قلب انسان أو سكن اليه قلب انسان ·

فكل وعد من وعود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان ·

وكل كلمة سمعها من النبي بخبر من أخبار الغد المجهول فهي عنده شاهد على شواهد الحاضر الملموس باليدين ··

نزل القرآن الكريم بغلبة الروم على الفرس في بضع سنين فذهب الصديق الى مشركي قريش يكبتهم (١) بنبأ هذا النصر القريب لأنهم كرهوه كراهة منهم في كل أهل كتاب ، وأحبوا نصر فارس حبا منهم لكل عابد وثن ، وقال لهم : ليظهرن الروم على فارس ! أخبرنا بذلك نبينا ·· فصاح به أبي بن خلف الجمحي : كذبت يا أبا فيصل ! قال الصديق : أنت أكذب يا عدو الله ، ودعاه أبي أن يراهنه على عشر قلائص (٢) · فعاد اليه يقول : بل على مائة الى تسع سنين · لأنه سمع وعد القرآن ، ووعد القرآن حقيقة عيان ، بل أمكن من حقيقة العيان ·

ولما تعقب جاسوس المشركين سراقة بن جعشم ركب النبي عليه السلام في الهجرة سمعه الصديق يقول لسراقة : كيف بك اذا لبست سواري كسرى ؟

فما شك الصديق أن الاسلام غالب الأكاسرة في يوم من الأيام،

---

(١) يكبتهم : يذلهم · (٢) القلائص : جمع قلوص وهي الناقة الطويلة القوائم ·

وأنه منصور على الدين كله كما جاء في الكتاب وفي حديث صديقه الرسول الأمين ٠

ذلك كله لا ريب فيه ٠٠

سينصر الاسلام على الدين كله في يوم من الأيام ٠ ذلك خبر عيان بل أمكن من خبر العيان ٠

ولكن أي يوم ؟ ومتى يحين الأوان ؟

هنا تبدأ الروية الى جانب اليقين ، بل تجب الروية على ولي الأمر في الاسلام كما يجب اليقين ٠

ونعتقد نحن أن الخليفة الأول قد أعطى الروية حقها كما أعطى اليقين حقه ، فما كان أبو بكر بالرجل الذي ينسى الحيطة كلما وجبت الحيطة على ولي الأمر ، وهي هنا كأوجب ما تكون ٠

وحسبنا من ذلك حيطته في حراسة المدينة وتبييت الجند بالمسجد حين تجرد لكفاح أهل الردة ، ثم وصيته لخالد بن الوليد ـ وقد علم حنكته في فنون الحرب وقدرته على قيادة الجيوش ـ فلم ينسه هذا العلم أن يزوده بالنصح حين خرج لحرب المرتدين ، فيدير هذا النصح كله على الحيطة أو اليقظة كما قال من كلام رصين وجيز : « اذا دخلت أرض العدو فكن بعيدا عن الحملة فاني لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بأفراد ، وسر بالأدلاء ، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل ، وسر في أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك الحياة ، ولا تقاتل بمجروح فان بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فان في العرب غرة ٠٠٠ واذا لقيت أسدا وغطفان فبعضهم لك ، وبعضهم عليك ، وبعضهم لا عليك ولا لك ، متربص دائرة السوء ينتظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة ، ولكن الخوف عندي من أهل اليمامة ، فاستعن بالله على قتالهم ، فانه بلغني أنهم رجعوا بأسرهم ، فان كفاك الله الضاحية فامض الى أهل اليمامة ، سر على بركة الله » ٠

وأدل من هذه الوصية على الحيطة والاحتراس في كفاح الأجانب وصيته ليزيد بن أبي سفيان في فتوح الشام حين يقول : « ٠٠ واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى

يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تريثهم فيروا خللك ويعلموا علمك ، وأنزلهم في ثروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولي لكلامهم ، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك ··· وأكثر حرسك ، وبددهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك ، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير افراط ، وأعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فانها أيسرها لقربها من النهار ·· » ·

ولم ينس قط ما بين جنده وجند العدو الأجنبي من فروق العدة · فكان يعمل في تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع · فذهب يوما يتفقد جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدتهم وسأل من حوله : ما ترون في هؤلاء ان أرسلتهم الى الشام في هذه العدة ؟ فقال عمر : ما أرضى هـذه العدة لجموع بني الأصفر ، وقال بقية أصحابه : نحن نرى ما رأى عمر ، فكتب الى أهل اليمن يستكمل العدة ويستنهضهم الى الجهاد ليخفوا اليه بما يسد هذا النقص من جند وسلاح ·

فالرجل الذي لا تفوته فائتة من شأن القبائل التي يرسل اليها بعوثه ، والرجل الذي يختار القائد فيحسن اختياره ثم لا ينسى مع ذلك وصيته وتحذيره واتمام عدته بما يقارب عدة عدوه ، والرجل الذي يقرن ذلك كله بالحيطة في مدينته بما في وسعه ــ ليس هو الرجل الذي يزجي البعوث الى تخوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيطة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية ، وليس بالذي يجازف وله مندوحة عن المجازفة من ارجاء أو مسالمة الى حين · وانما يرجو الغلبة بالقليل على الكثير لأنه يعتمد على « عدة الايمان » ويعلم كما قال ليزيد بن أبي سفيان : « قد نبأنا الله ان الفئة القليلة مما تغلب الفئة الكثيرة باذن الله ، وأنا مع ذلك ممدكم بالرجال في آثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا الى زيادة انسان » ·

وانا لنعلم اليوم أن الصديق لم يجازف قط بتجريد البعوث الى تخوم فارس والروم ، ونعلم أن عوامل النصر كانت كلها أو

معظمها في صفوفه ، وأن عوامل الهزيمة كانت كلها أو معظمها في صفوف أعدائه ٠

نعلم اليوم أن الفرس قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمتها الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت نارها التي تعبدها في قلوب أهلها قبل أن تبوخ في معابدها ومشاعلها ، وشاع فيهم الخوف من الثبات في القتال حتى قيدوا بعضهم الى بعض بالسلاسل ليحولوا بين هارب وهربه ، وقلت الدربة في قادتهم حتى تخيروا أسوأ المواقع وأسوأ الأوقات للهجوم في معارك كثيرة ٠

ونعلم ان الروم قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمها ما قد حطم الفرس من الحروب الخارجية والفتن الداخلية ، وباخت عقائدها في صدورها لفرط ما أرثها من الجدل العقيم والمحال الدميم (١) ، واستكانت الى الذلة زمنا حتى رضيت بالجزية تؤديها لبرابرة الهون والأبارة ، واشتملت على أمم كثيرة تماديها وتتربص بها الدوائر كلما طمع الطامعون فيها ٠

نعلم اليوم ذلك من الواقع الذي وقع وبطل الشك فيه ، ومن التاريخ الذي تفتحت أمامنا صفحاته وقد زال عنها الحجاب ٠

ولكن الصديق لم يكن قد رأى هذا الذي رأيناه ، ولا تصفح هذا الذي تصفحناه ، فهل معنى ذلك أنه أقدم بغير علم ، وأنه نسي ما طبع عليه من الحيطة والحزم ، وأنها سها عن واجب الروية وقد تهيأ له واجب اليقين ؟!

لا ٠ فان الذي كان يعلمه الصديق قد كان يكفيه ويغنيه عن هذا الذي علمناه ٠

كان يعلم أن الفرس قد خسروا قبل الاسلام وقعة ذي قار وهم أقوى صولة والعرب أضعف شأنا من شأنهم بعد الاسلام ٠

وكان يعلم أن الروم قد صبروا على بعثتين عربيتين بلغتا من بلادهم الى التخوم وأوغلتا في بعض الأطراف ثم فترت همتهم عن مقابلة ذلك بالقمع والقصاص السريع ٠

---

(١) المحال الدميم : المكر القبيح ٠

وكان يعلم أن العرب ان طلبوا الدين حاربوا صادقين في القتال ، وان طلبوا الدنيا حاربوا صادقين في القتال ، وأنهم موعودون بالنصر ومؤمنون بصدق الوعد ومقبلون بنفوس تحب الموت كما يحب أعداؤها الحياة ، وأنهم خفاف لا تثقلهم العدد ، محميون من وراء ظهورهم بالصحراء ان وجبت الرجعة ، مقدمون على أرض خبرتها طلائعهم وهونت عليه خطبهم ، وأبلغته من أخبار فتنها ومفاسدها ما يملي له في الايمان بالقدرة عليها ٠

فاذا علم هذا فهو حسبه من الروية مقرونا بذلك اليقين الذي لوسها عن كل روية لكان له بعض العذر ، وكان به جل الغناء ٠

وفي أقل من ثلاث سنوات قصار أنجز ما أنجز من تلك المآثر الطوال ٠٠ وفي أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفي سبيلها ما فيه من صعاب ، وقمع الردة وحولها ما حولها من خطر ، ووطىء حدود فارس والروم ولها ما لها من هيبة ومنعة : ثلاثة أركان للدولة الاسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم ، ولو أنها حسبت لثلاثين سنة ــ ولم تحسب لثلاث سنوات قصار ــ لجللتها جميعا بالثناء والفخار ٠

ولم يتسع الزمن لاقامة نظام للدولة الاسلامية في عهد أبي بكر على مثال النظم السياسية والادارية التي تقام للدول الكبار في حداثة نشأتها ٠ أو لعل المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه في عهد الخلافة الأولى ، ولكنها مسألة الحاجة الى تلك النظم وقلة الحاجة اليها ، ففي عهد الخليفة الأول بعد النبي عليه السلام لم يطرأ على ادارة الدولة الاسلامية ما يدعو الى نظام جديد غير النظام الذي كانت تجري عليه في عهده عليه السلام ٠ لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة الى مثل ما كانت عليه في أيام النبوة ، ولأن الارجاء الاجنبية التي زحفت عليها بعوث المسلمين لم تزل الى آخر خلافة الصديق في دور الغزو والفتح ولم تبلغ بعد الى دور التوطيد والتنظيم ، فكل ما جرى عليه النظام في أيام النبوة فقد كان صالحا للاتباع في أيام الخلافة الأولى ، وههنا تتجلى حكمة النبي عليه السلام في اسناد الخلافة الأولى الى أصلح الناس لمتابعة العهد النبوي على حاله الذي كان عليه ٠ حتى اذا حان وقت التوسع والتصرف وجد الوقت من هو

أصلح وأقدر عليه . وكأنه كان معروفا من قبل موكولا الى حينه الذي يترقبه ويستدعيه ، ولن يكون الا عمر بن الخطاب كما سماه عليه السلام حيث قال : « أريت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب (١) فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا (٢) أو ذنوبين نزعا ضعيفا ، والله يغفر له ، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربا ، فلم أر عبقريا يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن (٣) » .

وعلى هذا يمكن أن يقال ان الأداة الحكومية ـ أو الادارية ـ لم تكن في عهد الصديق محتاجة الى نظام غير النظام الذي اتخذه النبي عليه السلام ، واكتفى به في ادارة الشؤون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية ، مع التعديل الذي اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبي ، وغياب المرجع الأعلى الذي ترتفع اليه جميع الأمور .

فتولى بيت المال رجل سماه النبي عليه السلام « أمين الأمة » وهو أبو عبيدة بن الجراح ، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره وهو عمر بن الخطاب ، وتولى الكتابة كاتب النبي عليه السلام زيد بن ثابت ، وكانت ولاياتهم أقرب الى الارتجال والتداول منها الى التكليف الدائم والعمل المرسوم .

وكان قادة الجند يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاة والقضاة على النحو الذي ألفوه في الجزيرة العربية ، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الادارة في بلد أجنبي تركها على النحو الذي كان مألوفا في ذلك البلد ، الا ما كان فيه خلاف للدين .

وكل من ولاه النبي عليه السلام في حياته عملا من الأعمال العامة أبقاه الصديق في مكانه ، أو رده اليه ان كان قد تحول عنه ، أو استأذنه في تحويله عنه ان بدا له من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله ، كما كتب الى عمرو بن العاص « اني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة وسماه لك أخرى : مبعثك الى عمان ، انجازا لمواعيد

---

(١) بئر . (٢) دلوا . (٣) مربط الابل حول الماء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد وليته ثم وليته ، وقد أحببت ــ أبا عبد الله ــ أن أفرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه ، الا أن يكون الذي أنت فيه أحب اليك » •

وأشار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد بعد أن قتل مالك بن نويرة على غير بينة قاطعة في رأي عمر ، وتزوج بامرأته في ميدان القتال وهو أمر تكرهه العرب قبل الاسلام وبعد الاسلام • فاختلف الفاروق والصديق اختلافهما الذي يرجع من كل منهما الى أصل أصيل في الطباع والنظر الى الأشياء والرجال : والفاروق وديدنه أن يوقع الجزاء بمن يستحقه كائنا من كان ، والصديق وديدنه أن يتألف ويستبقي ولا يبتدىء شيئا بغير سابقة ، وساعده على ابقاء خالد سابقة للنبي عليه السلام معه في حرب بني جذيمة • فانه تعجل يومئذ في قتل بعض الأسرى فوداهم النبي عليه السلام حتى رد اليهم ميلغة الكلب ، ورفع يديه يبرأ الى الله مما صنع خالد ، ولكنه لم يعزله من الامرة أو القيادة • فكانت هذه السابقة أمام الصديق يوم لام خالدا على ما بدر عنه ثم أبقاه •

وما من شيء يدل على تكافؤ العظمة بين الرجلين كما تدل عليه الحجة التي يعتمد عليها كل منهما حين يختلفان • فما اختلفا قط بحجة تضعف من ناحية وحجة تقوى من الناحية الأخرى ، بل كان لكل منهما حجته الناهضة فيما يجنح اليه ، وان كانت هذه حجة اقتداء ، وهذه حجة ابتداء ••

جاءت الغنائم والأنفال الى بيت المال لتوزيعها بين من يستحقونها من الرجال والنساء • فكان الفاروق يجنح الى تمييز الأنصبة على حسب المآثر والأقدار ، وحجته أنه لا يسوي بين من قاتل رسول الله ومن قاتل مع رسول الله ، وكان الصديق يجنح الى التسوية بين الأنصبة بغير تمييز ، وحجته أن « الأعمال شيء ثوابه على الله ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » •

وما اختلفت حجة الابتداء وحجة الاقتداء ــ أو ترك الابتداء ــ كما اختلفت هاتان الحجتان على مساواة في النهوض والاقناع •

وقد جرى الصديق في سياسة الدولة على سنة النبي عليه

السلام من مشاورة ذوي الرأي والثقة في كل ما جل أو دعا الى السؤال ، ولكنه كان يستقل بالرأي حين تكون التبعة فيه تبعته دون غيره ، كما استقل بالرأي في اختيار الخليفة من بعده ، واستقام له بعد المشاورة والروية أن يعهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب ٠

فخلاصة ما يقال في سياسة الصديق للدولة الاسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدي المقتدر الفعال الذي يصغي الى النصح ممن يرون التصرف والتمييز والابتداء ، ولم يكن قط مقتديا على ضعف وتواكل والقاء بالتبعة على غيره ، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين ٠

واذا حسبت لأبي بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس والروم ، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل في باب البعوث ، ولكنه أقوم للدولة الاسلامية من جميع هذه البعوث ، لأنه دستور هذه الأمة التي لم تقم لها قائمة بغيره ، وهو جمع القرآن ٠

وقد كانت سنته في جمع القرآن سنته الواضحة التي لا محيد عنها : وهي سنة الاقتداء والاصغاء الى القويم من الآراء ٠ فلما مات من مات من حفاظ القرآن في حروب الردة وخيف على من بقي منهم أن تأتي عليهم حروب فارس والروم كبر الأمر على عمر فأشار على الخليفة بجمع القرآن ٠ فأحجم بادىء الرأي ، وهو يقول : كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر فتجرد له بجميع عزمه ، وانقضت خلافته على القول الأشهر والقرآن مجموع مفروغ من كتابته في المصاحف كما نقرؤه الآن ٠

وكانت الدولة الاسلامية بهذه المثابة أمانة أعظم بها من أمانة تنوء بها كواهل الرجال ٠ يقول من شاء ما شاء في دراسة هذه الفترة الخالدة ، الا شيئا واحدا لا يقول عارف بما يقول ، وهو أن أحدا كان يتلقى تلك الأمانة خيرا من تلقيه أو يسلمها خيرا من اسلامه ، منذ أن تلقاها بيد من النبي عليه السلام حتى أسلمها بيد الى عمر بن الخطاب ٠

الصديق والحكومة العصرية

قلنا في الفصل السابق عن الصديق والدولة الاسلامية ان الحاجة لم تدع في عهده الى نظام غير النظام الذي سنه النبي عليه السلام لسياسة الجزيرة العربية ، وانه ــ رضي الله عنه ــ قد توفي ولما تستقر الامور في البلاد المفتوحة على حال تدعو الى اتباع نظام شامل لكل قطر من أقطار الدولة الاسلامية ٠

الا أن الصديق كان أول خليفة قام بالحكم الاسلامي بعد عهد النبوة فمن الطبيعي أن نسأل عن نوع الحكم الذي توصف به حكومته وحكومة الخلفاء من بعده ، وأن نعرف وجه المشابهة بين تلك الحكومة وحكومة العصر التي قامت على المبادىء الدستورية الحديثة ٠ فأي حكومة هي حكومة الصديق أو حكومة الاسلام في عهده ؟ وأي العناوين هو أقرب اليها من عناوين الحكم في هذا العصر الحديث ؟

الديمقراطية ــ ولا ريب ــ هي أقرب النظم الى نظام الحكم في عهد الصديق ٠

ولكن الديمقراطية أشكال تختلف في العصر الواحد بين أمة وأمة ، ولها قواعد دستورية ومقدمات تاريخية من العسير أن نوحد بينها وبين قواعد الخلافة ومقدماتها ، ومن السهل جدا مع هذا أن نصدف (١) عن هذا التوحيد دون أن نغض (٢) من نوع الحكومة في صدر الاسلام ٠

فليس من المحقق أن حكومة الاسلام يومئذ توصف بالديمقراطية على المعنى الذي نفهمه من هذه الكلمة في هذه الأيام ٠

---

(١) صدف عنه : أعرض ٠ (٢) نغض من نوع الحكومة : نحط من قدرها ٠

ولكن من المحقق أن الحكومة الاسلامية على النحو الذي جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون كانت بعيدة كل البعد من جميع أنواع الحكومة المعيبة أو جميع المبادىء التي تستند في تقرير حكم الشعوب على أساس معيب ..

فاذا كانت حكومة الخلافة لم تقرر الديمقراطية على أساسها العصري المعروف بيننا فهي ـ بلا ريب ـ قد أبعدت مبادىء الاوتوقراطية ، ومبادىء الثيوقراطية ، ومبادىء الأليجاركية ، ومبادىء حكومة الغوغاء ، وسائر المبادىء التي لا تستقيم مع حرية الفرد ومع الفطرة السليمة .

فالأتوقراطية وهي حكومة الفرد المستبد ممنوعة في الاسلام ، لأن القرآن الكريم يأمر النبي أن يشاورهم في الامر وينص على أن « أمرهم شورى بينهم » . واذا كان النبي الذي يتلقى الوحي الالهي لا يجل (١) عن مشاورة أتباعه والرجوع الى رأيهم في سياسته ، فغيره من ولاة الأمر أولى أن يتقيد بالشورى ويتجنب حكومة الطغيان .

والثيوقراطية وهي الحكومة التي يدعي فيها الحاكمون صفة الهية ممنوعة كذلك في الاسلام ، لأن القرآن الكريم يعلم المسلمين أن النبي بشر مثلهم ويبطل الكهانة والوساطة بين الانسان وربه، وقد نهى النبي ولاته وأمراء جيشه أن يبرموا العهود باسم الله أو باسم رسوله ، فكان يقول لمن ولاه : « ... لا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فانكم أن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله » .

ولما قيل للصديق : يا خليفة الله ، أنكر ذلك وقال : انما أنا خليفة رسول الله ، وسأل الناس أن يقوموه ويرشدوه .

والأليجاركية وهي حكومة الفئة القليلة من الأعيان والسروات ممنوعة كذلك من المسلمين ، لأن بيعة الخاصة في الاسلام لا تغني عن بيعة العامة وليس في الاسلام سيادة نسب كما جاء في الحديث الشريف : « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » .

---

(١) لا يجل : لا يترفع .

وحكومة الأهواء سواء كانت أهواء الوجوه أو أهواء السواد ممنوعة كما منعت الحكومات التي أسلفناها • فليست أهواء المحكومين مغنية عن أصول الحق والعدل ودستور الشريعة والنظام وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا » • • •

واذا امتنعت كل هذه المبادىء المعيبة في حكم الناس فقد صلحت الحكومة بما شئت من الصفات والعناوين • اذ الحكومة على تعدد أنواعها انما تنحصر في نوعين اثنين هما النوعان اللذان فرق بينهما أرسطو في أصول السياسة : أو هما الحكومة الصالحة لمصلحة المحكومين ، والحكومة الفاسدة لمصلحة الحاكمين • وكل ما عدا ذلك من الصفات والعناوين فهو داخل في أحد هذين النوعين •

فاذا لم تكن حكومة الصديق ديمقراطية حديثة فالديمقراطية لا تتوخى من الحكم غاية أفضل من الغاية التي تتوخاها حكومة الخلافة ، ولا تبعد من المبادىء شيئا غير المبادىء التي أبعدتها الحكومة الاسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين •

أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وخلائقه النفسية فخلائق أبي بكر التي عرفناها دليل عليها : عفة وصدق ودعة وحزم واناة وكيس ، وكل ما يعهده من هذه الخلائق فهو معهود من الخليفة الأول في جميع ما حكم به وتولاه •

ولي الخلافة فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد (١) يذهب بها الى السوق ، فلقيه عمر فسأله : أين تريد ؟ قال : الى السوق • قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال : فمن أين أطعم عيالي ؟ فأشار عليه أن يذهبا الى أبي عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله • ففرضت له ستة آلاف درهم في السنة •

---

(١) أبراد : جمع برد وهو ثوب مخطط •

وكان يقيم بالسنح على مقربة من المدينة فتعود أن يحلب للضعفاء أغنامهم كرما منه ورفقا بهم • فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة : اليوم لا تحلب لنا مفاتح دار • فسمعها فقال : بلى لعمري لأحلبنها لكم • فكان يحلبها وربما سأل صاحبتها : يا جارية ! أتحبين أن أرغي لك أو أصرح ؟ فربما قالت : أرغ ، وربما قالت صرح • فاي ذلك قالته فعل •

ثم تكاثرت أعمال الحكومة فانتقل الى المدينة ، رأى أن يعين نفسه على النفقة بالتجارة حيثما استطاعها • فلما حضرته الوفاة أمر أن يحصى ما أخذه من بيت المال فيرد من ماله وأرضه وقال لعائشة رضي الله عنها : « فاذا أنا مت فردي اليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نز الأرض • كان حشوها قطع السعف » •

ومما روي عن عفته وزهده أن امرأته اشتهت حلوا واستفضلت من نفقتها في عدة أيام ما تشتريه به ، فلما علم ذلك رد الدريهمات الى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى •

وما كان صديق النبي وصفيه ليبيح لنفسه ما لم يبحه النبي وان استطاع من خاصة ماله ، فضلا عن بيت مال المسلمين •

وكان حكمه الى الرفق والأناة والكياسة ، غير غافل عن اليقظة والحزم حيثما وجبت يقظة وحزم •

فكان يتقصى أخبار الولاة ويسأل الرعية : هل من أحد يتشكى ظلامة ؟ فان وجد ظلامة أنصف المظلوم على سنته التي استنها ، وهي أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه •

وكان يوصي قائده : « ألا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم ، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم » • أو يقول : اقبل علانيتهم وكلهم الى سرائرهم ، ويأمره مع ذلك ألا يغفل عن استطلاع أمرهم لاصلاح ما فسد منه •

والى كياسته يرجع الفضل في تغليب مبدأ من أسلم مبادىء القضاء قديمها وحديثها ، أخذ به رجال المسلمين في قضائهم واتبعته الحكومات العصرية جميعا في قضائها ، ونعني به المبدأ

الذي يحرم على القاضي أن يحكم بعلمه في اقامة الحدود ، وقد اثره الصديق رضي الله عنه فقال « لو رايت رجلا على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري » •

وما حفظت له وصية قط الا ظهر فيها خلقاه الغالبان ، الكياسة والصدق ، فاذا حذر الولاة ان يكشفوا عن أسرار الناس لم ينس قط تحذيرهم من اخلاف الوعد والوعيد ، وجماع ذلك قوله لعكرمة : « مهما قلت اني فاعل فافعله ، ولا تجعل قولك لغوا في عقوبة ولا عفو ، ولا ترج اذا امنت ولا تخافن اذا خوفت، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول ، ولا تعدن معصية بأكثر من عقوبتها ، فان فعلت أثمت وان تركت كذبت » •

جرى حكمه كله على هذه السنة من الرفق والصدق ومن اليقظه والحزم ، ومن الكيس والفطنة ، لم تؤخذ عليه الا بادرة واحدة هي احراقه الفجاءة في ساعة من ساعات الحدة التي كان يغالبها جهده ، حتى غلبته مرة في عقاب هذا اللص الخاتل السفاح •

وكان الفجاءة هذا — أو اياس بن عبد يا ليل — قد جاء الصديق فاستعانه بالسلاح لقتال المرتدين ، فلما أعطاه السلاح آخذه ليقطع الطريق ويعيث في الأرض ويثخن فيمن صادفه قتلا ونهبا من المسلمين كان او المرتدين ، وتفاقم شره وعظم بغيه حتى وقع في الاسر وجيء به الى الخليفة وهو يرى انه قد استحق جزاء أكبر من جزاء القتل لأن جرمه اكبر من جرم قاتل • وقد استثاره هذا الرجل بكل ما يثيره ويذهب بحلمه ورفقه : استثاره بكذبه عليه وهو يمقت الكذب ، واستثاره بخداعه اياه وهو يكره أن يعبث به أحد ، واستثاره بتسخيره في قتل المسلمين بما أعطاه من سلاح وعدة ، فأكبر جرمه بمقدار ما يكبر عنده الصدق والكرامة والغيرة على دماء المسلمين ، وأمر به أن يلقى في نار توقد له في مصلى البقيع •

خطأ ولا ريب ••

ولكنه خطأ له عذره ، وخطأ في رأي أبي بكر نفسه قد ندم عليه بعد فورة الغضب التي ذهبت بحلمه ورفقه ، وقد ظل يذكر

هذا الخطأ ويأسف له الى أن قال وهو يجود بنفسه : « وددت أني لم أكن حرقت الفجاءة السلمي وأني كنت قتلته سريحـا (١) أو خليته نجيحا ... » .

ومهما يكن من رأي الأقدمين أو المحدثـين في هـذا الحادث فالخطأ الذي لا جدال فيه أن ندين به الاسلام كله أو ندين به أبا بكر كله في جميع حالاته . ففي كل عصر تقع الحوادث مـن أشباه هذا الحادث المفرد ولا تحسب على دين أو دولة سواء في العصر القديم أو العصر الحديث .. انما يحسب على الاسلام ما هو قاعدة من قواعده ، ويحسب على أبي بكر ما هو سنة مطردة في حكومته ، وما عدا ذلك فهو نبوة عارضة عذره فيها فداحـة الجرم وشفيعه فيها طول الندم ، فمن غلا في المؤاخذة حتى فتح من هذا الحادث المفرد بابا للمقارنة بين عصر وعصر ، وبين حاكم وحاكم فقد أضاف الى سوء النية جهله بالعصر الحديث .

وعلى هذا يثبت من شاء هذا الحادث لحكومة أبي بكر ويحذفه من شاء منها ، فلا تزال على الحالين قدوة لأصلح الحكومـات العصرية في مزيتين جامعتين : احداهما ابطال المبادىء الضارة التي تفسد الحكومة على اختلاف صفاتها وعناوينها ودعاواها ، والثانية تقرير الغاية التي لا تفضلها غاية لحكومة انسانية : وهي حرية الفرد ومصلحة المحكومين .

---

(١) سريحا : معجلا .

الصديق والنبي وصحبه

سئل النبي عليه السلام : يا رسول الله ! أي الناس أحب اليك ؟

قال : عائشة ٠

قالوا : انما نعني من الرجال ٠٠

قال : أبوها ٠

وكان عليه السلام يقول : ما لأحد عندنا يد الا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر ، فان له يدا يكافيه الله بها يوم القيامة ٠

ويفسر ذلك قوله عليه السلام : ما أحد أعظم عندي يدا من أبي بكر : واساني بنفسه وماله ، وأنكحني ابنته ٠

وكان عمر بن الخطاب يقول : أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان المقال لأيدها ما يسمونه بلسان الحال ٠ فان أبا بكر كان ألزم للناس للنبي وأعرفهم بسره وجهره وأقربهم الى ثقته وحسن رأيه ، وكان النبي عليه السلام يسمر عنده في شئون المسلمين ويركن الى مشورته في كثير من الأحايين ، واذا بلغ من شأن رجل أن يكون أحب الناس الى النبي عليه السلام فهو أهل لحبه وأهل لثقته لا مراء ، لأن هذا الحب في النفوس العظيمة قرين الثقة والتقدير لا يخلو منهما ولا ينفصل عنهما ــ فمن استحق منها الحب الراجح فقد استحق عندها الثقة الراجحة في آن ٠

فلم يكن حب النبي أبا بكر حب الرجل يجزي به من يحبه ويخلص له ويوليه الجميل من ذات نفسه وماله ثم لا مزيد ٠ ولكنه كان كذلك حب الرجل من يستحق منه الحب لفضيلته وكفايته واقتداره على معونته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يضطلع به كل معين ٠

وحين قدمه للامامة من بعده لم تكن وسيلته اليها حب الاخلاص والجزاء ، بل كانت وسيلته اليها حب الثقة والروية وحب الدعوة التي تجرد لها وحب المسلمين الذين آمنوا بتلك الدعوة • فان نبيا كمحمد عليه السلام لا يجعل مستقبل دينه مكافأة لصداقة انسان ، وانما يكل هذا المستقبل لمن هو أهل لأمانته وأقدر على صيانته ، وهو من أجل ذلك آهل للحب وأهل للبقيا والادخار •

أما حب أبي بكر محمدا فهو كما قدمناه حب الايمان والاعجاب والولاء ، وهو الحب الذي تهون فيه على المرء نفسه وماله وذووه، وينزعه من ماضيه ليستولي على حاضره كله وما هو أعز عليه من الحاضر وما فيه ، وهو الأمل فيما يشهد والأمل فيما وراء الغيب ، بل الامل في حياة لن تبيد •

فمنذ اللحظة التي انعقدت فيها الصداقة بينهما رضي الصديق الأمين أن يسخو في سبيل هذه الصداقة بكل نفيس عنده وكل أثير لديه وأنفق ماله وفارق وطنه وأبناءه وهاجر من مكة مخاطرا بحياته ، فما همه وهو محفوف بالخطر في طريقه الا صاحبه الذي معه يفديه بما وسعه من فداء : ليسبقه تارة ويخلفه تارة أخرى ليدرأ عنه الشر من حيثما توقعه واتقاه ، ثم يقيم على هذا العهد ما أقام في دنياه ، غير باخل بعزيز ، ولا ناكص عن محذور ولا نادم على مبذول أو مفقود •

ومن فضول القول أن يقال انه أقام على عهده هذا بعد موت النبي ، كما أقام عليه طوال حياته ، فكل حركة تحركها وكل كلمة قالها شهيد بذلك له عند من ينصف ويعقل ، بل عند من يعقل ولو لم يكن من المنصفين •

اذ ليس من العقل أن يقدح قادح في ولاء الصديق للنبي بما حرم فاطمة رضي الله عنها من ميراث أبيها • فلئن حرمها لقد حرم عائشة مثلها ، لأن الأنبياء في شرعة محمد لا يورثون ، وما أراد أبو بكر أن يضن بميراث محمد على وارثيه ومنهم بنته وأحب الناس اليه ، ولكنه أراد أن يضن بدينه ويضن بوصاياه ،

وهي أولى أن تصان من المال ومن البنين ، كذلك لا يقال انه حرم علياً رضي الله عنه حقا في الخلافة ، فما كان في وسعه أن يحرمه شيئا لو كان عليه السلام قد وصى له بشيء ، وما كانت فاطمة بغائبة عن سرير أبيها في مرض موته فيقال انهم قد كتموا عن النبي بعض ما قال ، ولا كان علي بالذي يعوزه المنطق لو أنه أراد البرهان من القرآن الكريم أو أراد الحجة من الحديث الشريف • ومن أين لأبي بكر تلك القوة التي ينتزع بها الخلافة انتزاعا من آل النبي ومن الأنصار والمهاجرين بغير حجة وبغير برهان ؟ لئن استطاع ذلك غير محتال ولا مغتال ولا سافك دم لكفى بذلك آية له أنه أحق المسلمين بولاية أمر الاسلام وأقدرهم عليها • وما استطاعه بعد ذلك من تثبيت الدين وقمع الفتنة وافتتاح الدولة لهو الآية بعد الآية والتمكين فوق التمكين •

لقد حدث بعد النبي ما لا بد أن يحدث ، وما ليس بكثير أن يحدث في موقف مقتضب لم يمهد له بسابق متبوع ولا بقدوة مأمومة ، فتأخر علي على المبايعة أشهرا وقيل انه لم يتأخر غير أيام بل ساعات ، فلا هو ولا أبو بكر صنعا ما يعاب في هذه الفترة طالت أو قصرت ، لأن أبا بكر كان يندب عليا للمهمات في حراسة المدينة وعلي كان يلبي ندبة أبي بكر تلبية الصدق والنجدة • ولو صح أن أبا بكر أخفى حقا يشينه اخفاؤه لما أقر علي له ببيعة ، ولا رضي له ولا لمن بعده بصحبة ، فكيف لو صح ما تهوس به بعض المتهوسين من اخفاء آيات من القرآن أو كلمات من الحديث ؟

جهد ما يقال في أحداث تلك الفترة أنها مدعاة أسف لا يؤسى عليه ، لأنها أقل ما يؤسف له الى جانب الغبطة التي يغتبط بها من أحاط بالموقف وأحاط بدواعي الخطر فيه ودواعي السلامة منه •

أما عهده لعمر من بعده فلا محل هنا للموازنة بين استخلاف عمر واستخلاف علي في تلك الآونة ، ولكننا نقول ان الصديق قد جهد في مسألة العهد جهد رأيه ، وان كان يود أن يكل الأمر الى المسلمين يختارون من يشاءون ، فجمع اليه نخبة من أهل الرأي وقال لهم فيما قال : « ••• قد أطلق الله أيمانكم من

بيعتي ، وحل عنكم عقدتي ، ورد عليكم أمركم ، فأمروا عليكم من أحببتم ، فانكم ان أمرتم في حياة مني كان أجدر ألا تختلفوا بعدي » ٠

فلم يستقم لهم أمر كما جاء في رواية الحسن البصري ، ورجعوا اليه يقولون : « ان الرأي يا خليفة رسول الله رأيك » فاستمهلهم حتى « ينظر لله ولدينه ولعباده » ٠

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن ابن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن الحضير ٠

وسأل عليا فقال : « عمر عند ظنك به ورأيك فيه ، ان وليته ــ مع أنه كان واليا معك ــ نحظى برأيه ونأخذ منه ، فامض لما تريد ، ودع مخاطبة الرجل ، فان يكن على ما ظننت ان شاء الله فله عمدت ، وان يكن ما لا تظن لم ترد الا الخير » ٠

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وختمه وخرج به مختوما ونادى في الناس : أتبايعون لمن في هذا الكتاب ؟٠٠٠ وقيل ان أبا بكر أشرف من كوته فقال : « يأيها الناس ! اني قد عهدت عهدا أفترضونه ؟ » فقالوا : رضينا يا خليفة رسول الله ٠ وقام علي فقال : لا نرضى الا أن يكون عمر ٠

ثم كانت البيعة التي أجمع عليها المسلمون ٠

فالمسألتان اللتان حسبتا من قبيل الخلاف بين الصديق وعترة النبي عليه السلام هما هاتان المسألتان : الميراث والخلافة ٠

ففي مسألة الميراث ما كان له أن يبرم فيها غير ما أبرم وقد علم أن النبي لا يورث كما قال عليه السلام ، وكان حكم عائشة في هذا كحكم فاطمة رضي الله عنهما ، وقد حضرته الوفاة وهو يوصي عائشة أن تنزل للمسلمين عما وهب لها من ماله ، وانه لحل لها بالهبة والميراث ٠

وفي مسألة الخلافة لا تحمد المجاملة حيث تكون المجاملة اخلالا بالذمة التي بينه وبين ربه ، واخلالا بالوحدة الاسلامية ومصالح المسلمين مجتمعين ٠

وفيما عدا هاتين المسألتين لم يكن من أبي بكر في حق فاطمة الا أحسن المجاملة والاجمال ، ولم يكن منه تقصير قط في تعهد

البيت النبوي بما يصون وقاره ، ويحمي جواره ، بل كان منه في حق أهل البيت كل ما يرضي ويريح ·

وجرى أبو بكر في معاملته لصحابة النبي على طبعه الذي فطر عليه ، وهو الرفق والمروءة والحياء · فأحسن صحبتهم وأثبت لهم ما أثبته النبي لهم في حياته ، ولم يكن منه في حقهم ما يشكونه الا ما شكا منه بعضهم حين التسوية بينهم وبين العبيد والنساء في حصة بيت المال ، وذلك رأي له قدمنا حجته فيه ، فأقدارهم عند الله يجزيهم عليها الله ، وهذا معاش تحسن فيه المساواة بين الناس ·

وكان أقربهم اليه وأجمعهم لثقته وحسن ظنه عمر بن الخطاب : عرفه على حقيقته التي جهلها بعض الصحابة ، وعرف ما في باطن نفسه من رحمة تخفيها خشونة ملمسه وشدته في عمله · فلما سأل عنه عبد الرحمن بن عوف أجابه : « انه أفضل من رأيك فيه · ولكن فيه غلظة » فقال عن خبرة به : « هو كذلك لأنه يراني رقيقا ، ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيرا مما هو فيه » ·

وقد آثر أبو بكر أن يبقي عنده نخبة الصحابة في المدينة فلا يقصيهم في الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار ، لأنهم أحق الناس أن يستشيرهم ويرجع اليهم ويشركهم معه في رقابة العمال والولاة ، وسئل في أهل بدر : لم لا يوليهم عملا فقال : أكره أن أدنسهم بالدنيا ، ولعله يريد بالتدنيس تعريضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع ·

ولا ندري على التحقيق أي الصاحبين كان صاحب الفكرة الأولى في هذه السياسة التي اتفقا عليها ولم ينحرفا عنها قط في عهديهما الا لضرورة نادرة · ونعني بها سياسة الاقلال من اسناد الأعمال الى كبار الصحابة ·

فعمر كان مشتدا في اتباع هذه السياسة حتى ليخطر على البال أنه هو صاحب الفكرة السابقة فيها ، وكان أبو بكر يخالفها حينا فيحاول عمر أن يرده اليها · قال « لما خرج معاذ بن جبل الى الشام أخل خروجه بالمدينة وأهلها في الفقه وما كان يفتيهم به ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه

لحاجة الناس اليه ، فأبى علي ، وقال : رجل أراد جهادا يريد الشهادة فلا أحبسه ، فقلت : والله ان الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه » .

الا أن أبا بكر كان يحاذر انطلاق بعض الصحابة محاذرة الرجل الذي امتلأ بيقين رأيه ولم يستمده من مشورة غيره . فلم ينس أن يحذر عمر هذا التحذير في وصيته اياه بعد استخلافه حيث قال :

« واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرىء منهم لنفسه ، وان منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فاياك أن تكونه ، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله ... »

وفاض هذا الرأي من لسانه حين أحس من بعض المهاجرين طمعا في الاستخلاف دون عمر بن الخطاب ، فقال لعبد الرحمن بن عوف وقد دخل عليه يعوده :

« ... ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد علي من وجعي ، اني وليت أمركم خيركم في نفسي ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ، ولما تقبل ، وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربي (١) كما يألم أحدكم اذا نام على حسك السعدان . والذي نفسي بيده لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا . ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يمينا وشمالا ، لا تضيعوهم عن الطريق . يا هادي الطريق جرت ! » .

فهذا كلام رجل ممتلىء النفس باليقين مما يقول ، فليس هو برأي انتقل اليه من غيره استحسنه وارتضاه ، ولكنه ــ فيما نرجح ــ رأي اتفقا عليه وقلباه بينهما فازداد كل منهما يقينا به فوق يقين .

على أن هذه النصائح القوية بين يدي الموت تكشف من حياة أبي بكر ما ليست تكشفه الأخبار المطولة والأقوال المستفيضة ، فهي تشهد له أنه قد سار في حياته تلك السيرة التي يريدها من

---

(١) منسوب الى أذربيجان .

الصحابة ويحث عليها أناسا في منزلة عبد الرحمن بن عوف وعمر ابن الخطاب ، وان تلك السيرة كانت من البدائه المعروفة التي يصدر عن صاحبها النصح فيسمعه أمثال هؤلاء الصحابيين الكبيرين • وقد كانت هذه في الواقع منزلة أبي بكر بين الصحابة عامة وخاصة : استحقها بينهم بسابق اسلامه وقديم صحبته للنبي صلوات الله عليه ، واستحقها برياضة نفسه على الكرامة والوقار حتى امتلأت النفوس حوله بكرامته ووقاره ، ولم يكن أحد غير أبي بكر يسكت عمر بن الخطاب وقد ثار ثورته بعد موت النبي ، أو يسكته وقد نهض للكلام أول مرة في سقيفة بني ساعدة ، وما أسكته يومئذ لأنه خليفة فما كان يومئذ بالخليفة ولا كان عمر بالذي تسكته هيبة منصب أو سطوة سلطان ، ولكنه رجل وقور يستمع له رجل حق • وناهيك بمن يهابه عمر بن الخطاب ! انه لأحق امرىء بين الصحابة أن يهاب •



ثقافته

تعرف ثقافة الرجل المثقف بعلامات كثيرة ، ولو لم تكن لها بالفكر والاطلاع صلة ظاهرة ٠

وندر أن يظهر من الانسان أثر محسوس الا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه ٠

على أن هذه العلامات تتفاوت في الدلالة كما تتفاوت في القيمة ، وأدلها وأقومها ـ فيما نرى ـ كلام الانسان ورأيه في كلام غيره ٠ لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية في وقت واحد ٠ فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله ومبلغ عرفانه بتصوير خلجات قلبه وخطرات ذهنه ، فتقديره لكلامه وكلام الناس ميزان صادق لتقدير الرجل في جملة أحواله وأفعاله ، وعلامة على الثقافة الروحية والفكرية قلما تضارعها (١) علامة أخرى ٠

وتقدير الكلام من أصدق العلامات على ثقافة الصديق ، سواء نظرنا في وزنه لكلامه أو في وزنه لكلام غيره ، أو في وزنه للكلام عامة من حيث هو جزء من « الشخصية الانسانية » يحرص عليه المرء كما يحرص على مقومات نفسه ٠

فالصديق كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه ، وكان أعلم الناس بموضع كلام الرجل من مروءته وشرفه ، فكان قوله نزرا ، ووصيته بالاقلال من المقال أسبق وصاياه الى ولاته وعماله ٠ قال لخالد بن الوليد : « أقل من الكلام فانما لك ما وعي عنك » ٠ وقال ليزيد بن أبي سفيان : « اذا وعظتهم فأوجز ، فان كثير الكلام ينسي بعضه بعضا » ، وكان يقول : « ان البلاء موكل بالمنطق » ويجتنب التزيد في المقال كما يجتنب التعرض للبلاء ٠

---

(١) تضارعها : تشابهها ٠

كان أقرب الصحابة الى النبي عليه السلام وألزمهم له في نهاره وليله ، ولكنه على هذه الملازمة لم يرو من الأحاديث النبوية الا نيفا ومائة وأربعين حديثا لم يتجاوز ما أثبته البخاري ومسلم نحو سبعها • وقيل في تعليل ذلك انه رضي الله عنه مات قبل تدوين الأحاديث ، وهو تعليل يرد عليه أن كثيرا ممن سمعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل الاشتغال بتدوينها ، وانما هي قلة كلامه فيما نرى أقلت ما سمع الناس عنه فحرروه ونقلوه •

ذلك وزنه للكلام عامة من حيث هو ملكة نفسية وجزء من الشخصية الانسانية •

أما كلامه هو فمن أرجح ما قيل في موازين الكلام ، سواء في ذلك موازين البلاغة أو موازين الخلق والحكمة ، وله من جوامع الكلم أمثلة نادرة تدل الواحدة منها على ملكة صاحبها فيغني القليل منها عن الكثير كما تغني السنبلة الواحدة عن الجرين (١) الحافل ، حين تكون المسألة مسألة الدلالة على المنبت والنبات •

فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله : « احرص على الموت توهب لك الحياة » ، أو قوله : « أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة » ، أو قوله : « خير الخصلتين أبغضهما اليك » ، أو قوله « الصبر نصف الايمان واليقين الايمان كله » أو قوله : « اذا فاتك خير فأدركه وان أدركك فاسبقه » ، أو قوله : « لا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك » أو قوله : « ليست مع العزاء مصيبة » فهي وما أثر عنه من أمثالها كلمات تتسم بالقصد والسداد ، كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير ، وتنبيء عن المعدن الذي نجمت منه فتغني عن علامات التثقيف التي يستكثر منها المستكثرون ، لأن هذا الفهم الأصيل هو اللباب المقصود من التثقيف •

وكانت له ــ رضي الله عنه ــ لباقة في الخطاب الى جانب هذه البلاغة في الكلام ، وهذا الجد في وزن المقال •

عزي عمر في طفل احتسبه فقال له : « عوضك الله منه ما

---

(١) الجرين : البيدر •

عوضه منك » وسأل رجلا يحمل ثوبا : أتبيــع هــذا الثوب ؟ فأجابه : لا ··· عافاك الله ! قال : هلا قلت لا وعافاك الله !

وهذا تمام البصر بالكلام ، قصد في العبارة ، ووزن للكلام ، وذوق في الخطاب ، ولا تتعرف النفس المثقفة الى الناس بآية هي أقرب من هذه الآية وأحق منها بالتصديق ·

ومن السهل على من يملك هذا البيان في كلامه أن يتتبــع شواهد البيان في كلام الآخرين · ولعل الصديق قد ملــك هذا البيان لأنه طبع عليه وطبع على حبه فتتبعه في كلام البلغاء من الخطباء والشعراء · فكان يروي الشعر ويحفظ الأمثال ويراجع النبي عليه السلام في الأبيات التي يبدل مواضع كلماتها ليخرجها عن وزنها ، ومنه ــ لا ريب ــ قبست السيدة عائشة ذلك القبس من مأثورات الشعر والخطب ــ فيمــا كانــت تتمثله وترويه ، واليه ترجع السليقة التي ظهرت في ذريته ومنهم ولداه عبد الله وعبد الرحمن وكانا ينظمان الأبيات بعد الأبيات · وهو نفسه لم ينظم الشعر فيما أجمع عليه الثقات ، ولكنه ــ وان لم ينظم ــ قريب السليقة ممن قالوه ولو بالتذوق والحفظ والرواية ·

ولهذه الثقافة مراجعها التي ترجع اليها أفضل ثقافات زمانه في الجزيرة العربية : طبع سليم وملاحظة صادقة وخبرة بالدنيا من طريق المعاملة والسياحة ، واصغاء الى الحسن من القــول ، والوثيق من الأخبار ، وعلم بالأنساب والتواريخ مشهور بــين المشهورين من أربابه ، واستيعاب للقرآن كله ولفقه الدين كله ، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع ممن نزل عليه القرآن الكريم صلوات الله عليه ·

قرأ يوما : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم » فقال : ان الناس يضعون هذه الآية في غير موضعها ، ألا واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلــم يقول : « ان القوم اذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، والمنكر فلم يغيروه ، عمهم الله بعقابه » ·

وسأل أصحابه يوما : ما تقولون في هاتين الآيتين : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنــون »

و « الذين أمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » ؟ قالوا : لم يلبسوا ايمانهم بظلم الخطيئة • فقال : لقد حملتموها على غير المحمل : استقاموا فلم يلبسوا ايمانهم بشرك •

وان فقه القرآن لينبوع يستمد منه الصديق في سلامة طبعه وصفاء ذهنه مددا يرجع بأمداد •

فثقافته في زمانه هي ثقافة الفقيه الأديب المؤرخ بما اصطلحوا عليه من معنى التاريخ في ذلك الزمان ••

ولا يتشابه معنى التاريخ عندهم ومعنى التاريخ عندنا كما نتوسع فيه اليوم ، ولكن النسب الذي كان يعلمه الصديق كان هو النسب المحيط بالمحامد والمثالب في القبائل العربية كافة ، وهو أنفع ما في علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح الى منزلة الحمد والسمعة الرفيعة والتنزه عن معارض الذم وقالة السوء ، وكذلك كان علم الصديق بأنساب العرب أجمعين ••

لما خرج النبي عليه السلام ليعرض نفسه على القبائل في أول الدعوة الاسلامية كان معه أبو بكر وعلي بن أبي طالب أسبق الناس الى الاسلام •

قال علي رضي الله عنه : « فرفعنا الى مجلس من مجالس العرب ، فتقدم أبو بكر فسلم ، وكان مقدما في كل خير ، وكان رجلا نسابة فقال : ممن القوم : قالوا : من ربيعة ، قال : وأي ربيعة أنتم ؟ أمن هاماتها (١) أو من لهازمها (٢) ؟ قالوا : من هاماتها العظمى • قال : وأي هاماتها العظمى أنتم ؟ قالوا من ذهل الأكبر • قال : فمنكم عوف بن محلم الذي يقال فيه : لا حر بوادي عوف ؟ قالوا : لا • قال : فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة ؟ قالوا : لا • قال : فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء ؟ قالوا : لا • قال : فمنكم جساس بن مرة حامي الذمار ومانع الجار ؟ قالوا : لا • قال : فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالب أنفسها • قالوا : لا • قال : فمنكم أصهار الملوك من كندة ؟ قالوا : لا • قال : فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟

---

(١) هاماتها : سادتها • (٢) لهازمها : اللهازم : لقب بني تيم الله بن ثعلبة • والمراد هنا الطبقة الوسطى من الناس

قالوا : لا · قال أبو بكر : فلستم ذهلا الأكبر · انما أنتم ذهل الأصغر » ·

وكان هذا علمه بأنساب كل قبيلة ومحامد السابقين منها ومثالبهم (١) ولا سيما قريش ومن جاورها · ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتا من الشعراء المسلمين يردون بها الهجاء على المشركين : هذا تلقين ابن أبي قحافة وما عداه · لأنه كان في هذا العلم بين قريش عامة بغير نظير ·

ونحن لا ننتظر بداهة من كل رجل تيسرت له هذه المراجع أن يبلغ من الثقافة مبلغ أبي بكر الذي تدل عليه أقواله وأعماله وخلائقه وسجاياه · ولكننا اذا علمنا أن تلك مراجعه وأن ذلك مبلغه فقد علمنا شيئا آخر نقصده ونتحراه ، وهو أنه رجل خلق من معدن العظمة والامتياز ، ولم يخلق رجلا كسائر الرجال ·

* * *

---

(١) مثالبهم : عيوبهم ·

الصديـق في بيتـه

من السهل بعد مراجعة يسيرة لحياة الصديق في جملتهـا أن نعلم أنه « رجل بيت » أو « رجل أسرة » وأن أواصره البيتية لا تستند الى الشعور بالواجب وحده ، ولكنها تستند مع الشعور بالواجب الى الشعور بغبطة القرابة ومودة الرحم ونعمة الألفة والمصاحبة ، فلم يكن ولدا بارا لأن البر بالآباء واجب وكفى ، ولا أبا رحيما لأن الرحمة بالأبناء غريزة وكفى ، ولا زوجا وفيا لأن الوفاء للأهل واجب وكفى ، ولكنه كان كذلك كما كان في جميع أواصره وعلاقاته : رجلا يشعر بالغبطة في جوار أبنـاء جنسه ، ويأنس للصحبة في جو الشعراء والأصدقاء ، ويتجلى فيه خلق الانسان « الاجتماعي بطبعه » على أخلصه وأوفاه •

عرف بره بأبويه في الجاهلية ، فلما أسلم وصاحب النبـي عليه السلام جمع بين بر الفطرة والحنان وبر الواجب والفريضة ، واطمأن الى هذا البر كما يطمئن صاحب الخير الذي لا جزاء عليه أن يصبح وله من الحظوة الالهية أجمل جزاء •

وعرف عطفه على أبنائه طوال حياته ، فما داخلته في عطفه عليهم قسوة أو شدة الا أن يكون ذلك بدافـع مـن العقيدة أو وازع من التأديب •

قال له بعض أبنائه ــ وقد كان يقاتل مع المشركين ــ انني كنت أراك فأتحاماك • فقال له : لكنني لو رأيتك لما تحاميتك •

وكان بين عائشة والنبي كلام • فسألها : من ترضين أن يكون بيني وبينك ؟ أترضين بأبي عبيدة بن الجراح ! قالت : لا •• ذلك رجل هين لين يقضي لك • قال أترضين بأبيك ؟ قالـت : نعم •

فلما جاء أبو بكر قال رسول الله : اقصصي !

فقالت : بل اقصص أنت ٠

فأخذ رسول الله في اعادة ما جرى بينهما من كلام ، وبدرت من عائشة كلمة لا تعنيها فقالت : اقصد ، أي التزم القصد ولا تزد في الرواية ، فرفع أبو بكر يده فلطمها وانتهرها مغضبا : تقولين يا بنت أم رومان : اقصد ! من يقصد اذا لم يقصد رسول الله ! وجعل الدم يسيل من أنفها ورسول الله يحجز بينهما ويقول لصديقه : انا لم نرد هذا ٠ حتى انصرف برضى رسول الله ٠ فقال لها ما معناه : رأيت كيف أبعدك الله منه ! أو قال لمثل هذه المناسبة : « رأيت كيف أنقذتك من الرجل ! » ٠

ففي هذا وأمثاله يشتد أبو بكر على بنيه وهي شدة قد تقترن بالرحمة ولا تحجبها الا الى حين ٠

وكان لصدق شعوره بالأبوة يحس ما يحتاج اليه الوليد في نشأة الطفولة ويزوده بتلك الحاجة ولو أغضب الآباء وهم عنده أصدق الأصدقاء ٠

فلما أخذ عمر بن الخطاب ابنه عاصما من أمه المطلقة تخاصما اليه فقضى بالوليد لأمه وقال لعمر : « ريحها وشمها ولطفها خير له منك » فكان غاية الرحمة وغاية العدل في آن ، وان رجلا يعدل حين يهم بالجور عمر لهو من العدل بمكان لا يسامى ٠

وكادت الصداقة عنده أن تكون أخوة أو بنوة ٠ فكان يتحدث عن عمر يوما فاذا هو يقول كأنما يتحدث الى نفسه : « والله ان عمر لأحب الناس الي ٠٠٠ » ثم خشي أن يكون في قوله ما يمس الصدق الذي فطر عليه فسأل من معه وفيهم عائشة : كيف قلت ؟ فأعادت له عائشة ما جرى به لسانه ، فاستدرك قائلا : اللهم أعز والولد ألوط ، أي ألصق بالقلب وأدنى ٠

وقد بنى أبو بكر بزوجتين في الجاهلية وزوجتين في الاسلام ، منهن أم رومان وهي أم ولديه عبد الرحمن وعائشة رضي الله عنهما ، ومنهن حبيبة بنت خارجة التي مات عنها وهي حامل ، فولدت بعد موته أم كلثوم ٠

ومن أولاده غير عبد الرحمن وعائشة ــ عبد الله الذي كان يأتيه بأخبار قريش حين هاجر مع النبي الى المدينة ٠ وقد جرح

بالطائف ومات بجرحه بعد انتقاضه • وكأنت فيه شجاعة وأدب ورقة ، وله شعر حسن يروي بعضه في زوجته المطلقة عاتكة بنت زيد وقصته معها من أدل أخبار هذه الآسرة على شعور أبي بكر بالأبوة والزوجية والواجب في وقت واحد ، وآن المغالبة بين الرحمة والواجب في نفسه كانت مغالبة سجال •

وقد كانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفطنة ، ففتن بها عبد الله وشغل بها عن مصالحه وشئونه ، فنصح له ابوه بطلاقها فطلقها ، فما زال حتى ندم وألح به الندم على فراقها ، وقال من شعره فيها :

أعاتك ، لا أنساك ما ذر شارق
وما لاح نجم في السماء محلق
أعاتك ، قلبي كل يوم وليلة
لديك بما تخفي النفوس معلق
لها خلق جزل ورأي ومنصب
وخلق سوي في الحياء مصدق
ولم أر مثلي طلق اليوم مثلها
ولا مثلها في غير شيء تطلق

فرحمه أبوه وأمره بمراجعتها ، فراجعها • فكان أبو بكر في هذا نموذجا مقابلا لنموذج عمر في هذه الناحية من الخلائق والوشائج القلبية ، كما كان نموذجا مقابلا له في خلائل شتى ووشائج أخرى • اذ كان عمر ينعي على ولده أنه عجز عن طلاق امرأته ، ويعد ذلك من مآخذه حين رشحه بعضهم للخلافة بعده •

ولم يكن لزوجات أبي بكر ما يشتكينه منه غير الاقلال من النفقة والقصد في المعيشة ، ففي اليوم الذي اجتمعت فيه نساء النبي عليه السلام يطالبنه بالمزيد من النفقة كانت بنت خارجة زوجة أبي بكر تطالبه هذه المطالبة ، فيغضب منها ، ويلوي عنقها، ويذهب الى النبي فيحدثه بحديثها ليسري عنه وقد رآه بين أمهات المسلمين على مثل تلك الحالة • فكأنما كن جميعا على ميعاد •

ولم يكن أبو بكر مقلا من المال ، ولا عاجزا عن كسبه قبل الخلافة ولا بعدها ، فقد أنفق في سبيل الاسلام أربعين ألف درهم،

وما زال ينفق من ماله في شراء الأكسية والأطعمة وتوزيعها على الفقراء ولا سيما في الشتاء ، ولكنه آثر متاع روحه على متاع جسده وكره أن يعيش في بيته خيرا من نبيه وصفيه ، وكان يبغض السرف فيقول : « اني لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في يوم » ••• فلو بقي له من المال ما يجاوز به حظه من النفقة لما جاوزه وهو يرى أمامه مثل النبي ويجب أن يكون مثلا لمن معه ومن بعده من خلفاء الاسلام وعامة أتباعه •

وقد تعددت الروايات عما قسم له من الرزق بعد الخلافة وكيف قسم بمشورة من حضر من جلة الصحابة ومنهم عمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة • ولكن الروايات متفقة على قصده في بيته واجتنابه للسرف في معيشته ، وأنه كما قال : « لم يعد سد الجوعة ووري العورة وقواتة القوام » • ومات وليس عنده مدخر يذكر • فقال عمر : « رحمه الله • لقد أتعب من بعده » • يريد أنه ألزمهم قدوة تتعب ولا تريح •

ونحسب أن النشأة في حياة أبي بكر البيتية لا تتمثل في شيء كما تتمثل في نشأة بنتيه عائشة وأسماء رضي الله عنهما • فأما عائشة فقد فارقت بيت أبيها وهي في نحو العاشرة أو أكبر من ذلك بقليل كما استخلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة ، فاذا هي في تلك السن قد وعت ما وعته من الشعر البليغ والأمثال السائرة والأخبار النادرة ، وقد نضجت لمصاحبة النبي والوعي عنه والدراية بالمأثور من كلامه ، وكانت بعد ذلك مرجعا من مراجع الفقه والسنة خليقا باعتماد الثقات الأجلاء •

ومن الناس من تعود أن يتخيل عائشة رضي الله عنها جارية صغيرة حظيت عند زوجها عليه السلام لجمالها وصغرها وصداقة أبيها ، ولكنها — ولا ريب — لم تبلغ هذه الحظوة عنده صلوات الله عليه الا لأنها الزوجة الكفء لبلوغها والمحافظة عليها ، وكانت تعرف من أدب الزواج ما يجمل بمكانها ، وتعرف من ملاطفة الزوج مداخل قلبه ومواطن رضاه ، وربما دللت زوجها ولم تترك له وحده مسرة تدليلها • فمن ذلك في روايات تختلف في النقل وتتفق في هذا المعنى أنه كان عليه السلام يصلح نعله في يوم قائظ فتندى جبينه وتحدر العرق على خده ، وهي تلحظه

من قريب وكأن بها وجدا عليه · فسألها :

ما لك بهت ؟

فقالت : لو رآك أبو كبير الهذلي لعلم أنك أحق بقوله ·

فعاد يسألها : أي قوله ؟

فأجابته : حين يقول :

ومبرأ من كل غبر حيضة
وفساد مرضعة وداء مغيل
واذا نظرت الى أسرة وجهه
برقت بروق العارض المتهلل

فقام النبي اليها يقبل ما بين عينيها ، ويقول لها : سررتني يا عائشة سرك الله ·

فهي أبعد شيء عما يتصوره النقاد الأوربيون حين يصورونها لقرائهم لعبة صغيرة بين يدي رجل كبير يدللها ولا تفاهم بينه وبينها ، ولكنها الزوجة التي تكافيء الزوج في حياته المنزلية ، والمرأة التي تبادل الرجل ما عنده من شعور ، والتلميذة التي تتلقى عن أستاذ عظيم فتحسن التلقي عنه ، وهي من جميع هذه الجوانب مثل صالح للنشأة البيتية في أسرة الصديق ·

أما أسماء ـ ذات النطاقين ـ فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتا وزوجا ووالدة الا كانت فيها على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والاكبار ·

أسلمت مع أبيها ، وكانت تخاطر بنفسها لاخفاء هجرته مع رسول الله وتزويدهما بالطعام والميرة في تلك الهجرة ، ولم تجد ما تشد به طعامهما فشقت نطاقها وشدته به ، فسميت لذلك ذات النطاقين ·

وتزوجت الزبير بن العوام وليس له مال ولا مورد ، فكانت تعلف فرسه وتدق النوى لناضحه (١) وتستقي له الماء وتخرز (٢) له غربه (٣) وتنقل النوى على رأسها من الأرض التي أقطعه اياها رسول الله على مسيرة ميلين · وما زالت كذلك حتى علم

---

(١) البعير الذي يستقى عليه الماء · (٢) تخرز : تنقب · (٣) الدلو من الجلد ·

أبوها بمشقتها في خدمة زوجها اتفاقا فأعانها بخادمة ، بعد أن قضت زمنا تخدم بيتها وهي بنــت أبي بكر وزوج الزبير وأم عبد الله من أعظم أبطال الاسلام ٠

وحوصر ابنها عبد الله في مكة فخذله الناس حتى أهله وولده، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال ٠ فذهب اليهـا يعرض عليها أمره ، وهو يقول : « ٠٠٠ لم يبق معي الا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار ، وقد أعطاني القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ فما ضعفت من الهول ضعف النساء ، ولا ضعف الأمهات ، وان الأبطال الصناديد ليضعفون في مكانها ، فلا يعدمون المعذرة الناهضة والشفاعة المقبولة ، بل ملكت جأشها وملكته جأشه وأقبلت عليه تقول : « يا ولدي ، ان كنت على حق تدعو اليه فامض عليه ، فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية فيتلعبوا بك ، وان قلت اني كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي فليس هذا فعل الأحرار ، ولا فعل من فيه خير ٠ كم خلودك في الدنيـا ؟ القتل أحسن ما يقنع به ياابن الزبير ٠ والله لضربة بسيف في عز أحب الي من ضربة بسوط في ذل » ٠

والتفتت تدعو الله كأنما تناجي نفسها : « اللهم ارحم طول ذاك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة ، وبره بأمه ! اللهم اني قد سلمت فيه لأمرك ، ورضيت فيه بقضائك ، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين » ٠

مقالة أم جاوزت المائة واصطلحت عليها الملمات وكف بصرها من الحزن ويئست من نصرة ابنها ومن حياته في جهاده ، فناهضت من السنن والمرض والخوف والثكل في أحرج الساعات ما تنوء به عزائم الاقيال وتنهد له أركان الجبال ٠

ثم غلب القوم ابنها المقدام فصلبوه ورفعوا جثته للتمثيـل والتشهير ، فآلمها أن يصاب في كرامة موته كما آلمها من قبل أن يصاب في كرامة حياته ٠ وذهبت الى الحجاج تسأله في ذلك سؤال الأعزاء ، فقادها الدليل اليه حتى وقفت على مقربة منه تقول : أما آن لهذا الراكب أن ينزل ؟ قال في غير رفق ولا حياء : المنافق ؟

فما همها وهو صاحب طلبتها أن يجيبها أو لا يجيبها ، وانما همها أن تدفع عن ولدها وأن تجزي الشاتم بشتمه ، وقالت مغضبة : « والله ما كان منافقا ، والله ما كان منافقا ، وقد كان صواما قواما ... » .

فعاجلها مغيظا من ردها عليه : اذهبي فانك عجوز قد خرفت ...

قالت : لا والله ! ما خرفت . ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يخرج من ثقيف كذاب ومبير (١) . فأما الكذاب فرأيناه ، وأما المبير فأنت هو .

وهذه هي الأم التي يشرف بها الأبناء والآباء ، وتشرف بها سلالة آدم وحواء ..

هذه أسماء بنت أبي بكر .

وتلك عائشة بنت أبي بكر .

فما عسى أن يقول القائل وأن يثني المثني على بيت ينجب هاتين العقيلتين الكريمتين ؟

لقد كان لأبي بكر أبناء من خيرة الرجال .

ولكن البيت تدل عليه بناته قبل أن يدل عليه أبناؤه ، لأن الفضل في نشأتهن كلها للبيت ، من حيث يحسب لغير البيت الفضل في نشأة الأبناء .

وذلك هو بيت الصديق ، أكرم به من بيت ما حملت الأرض كلها من بيوت .

---

(١) مبير : مهلك .

صـــورة مجملـــة

قالت السيدة عائشة في وصف أبيها وقد تناوله بعضهم بما أغضبها :

« ... سبق اذ ونيتم (١) سبق الجواد اذا استولى على الأمد (٢) ، فتى قريش ناشئا وكهفها (٣) كهلا ، يفك عانيها (٤) ويريش مملقها (٥) ، ويرأب شعبها (٦) ويلم شعثها (٧) ، حتى حلته قلوبها ، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل ... » .

وكان نفر من المهاجرين والأنصار يتذاكرون فضائل أهل الفضل عند باب النبي عليه السلام ، فخرج عليهم النبي فسألهم : فيم أنتم ؟ قالوا : نتذاكر الفضائل ... فقال : « لا تقدموا على أبي بكر أحدا فانه أفضلكم في الدنيا والآخرة » .

ومن قوله فيه عليه السلام : « أبو بكر خير الناس الا أن يكون نبي .. » .

وقال علي رضي الله عنه في تأبينه : « ... كنت كالجبل الذي لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف : كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفا في بدنك قويا في أمر الله ، متواضعا في نفسك عظيما عند الله ، جليلا في الأرض كبيرا عند المؤمنين ، ولم يكن لأحد عندك مطمع ، ولا لأحد عندك هوادة ، فالقوي عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه ، والضعيف عندك قوي حتى تأخذ الحق له ، فلا حرمنا الله أجرك ، ولا أضلنا بعدك ... » .

---

(١) ونيتم : ضعفتم وعييتم . (٢) الامد : المنتهى والاجل والمسافة .
(٣) كهفها : ملاذها . (٤) العاني : الاسير . (٥) يريش مملقها : يطعم فقيرها .
(٦) يرأب شعبها : يصلح خلافاتها . (٧) يلم شعثها : يجمع أمرها .

وفي هذا الثناء كفاية اذا عمدنا الى الثناء الذي قاله فيه عارفوه ·

ولكننا في أمر أبي بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز الثناء الى مقالة الأعداء الألداء ، ونحن آمنون أن نسمع فيه ما يغض من فضله وينقص شيئا من حقه · اذ ليس على عظيم من العظماء غضاضة أن يختلف فيه مختلفون ، وأن يتأول أعماله متأولون ، فكل عظيم من عظماء الدنيا قيل له وقيل عليه ، وحسنت نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين ، فليس هذا بضائره ، وليس هذا بعجيب ، وانما الميزان العادل في الحكم له أو عليه دليل القائل وليس مقال القائل · فلمن شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء ، ولكنه لا يوضع في الميزان الا بدليل تؤيده الوقائع والأعمال · فهذا الذي يحسب من مقال القائلين ومن خلاف المختلفين ·

فليست فضيلة أبي بكر أنه ظفر من الناس جميعا بالثناء الذي لا معقب عليه ، اذ ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطلوب ··

وانما فضيلته أنه قد ظفر بالثناء ممن في ثنائه صدق ولثنائه قيمة وأن خلاف المخالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون ·

وكل حكم على أبي بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع ، فهو مصور له في صورة عامة واحدة لا شك فيها ، وهي صورة أمين ، وأكثر من أمين ، لأنه لم يتهم قط بخيانة في الجاهلية أو في الاسلام ·

وأكثر من الأمين ، لأن الامين هو الذي يعطي حق غيره ، فأما الذي يعطي الامانة ويزيد عليها ، أو يعطي حق غيره ويعطي من حقه الذي لا يطلب منه ، فذلك هو المفضل الذي جاوز قدر الأمانة ، فهو أكثر من أمين ·

وكان أبو بكر يؤدي الأمانات في الجاهلية ويزيد عليها من عنده فضل المفضل واحسان المحسن واغاثة المغيث ·

ثم تسلم الأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هي وزاد عليها ·

ولسنا غالين في المجاز حين نقول انه صنع مثل ذلك في أمانة الخلق أو أمانة الحياة ، فمات خيرا مما ولد ، ونشأ ضعيفا في بدنه كما قال رسول الله ، فاذا هو يستمد من قوة باطنه لقوة ظاهره ، ويلقي من مروءته على مرآه ، حتى أنشأ من نفسه ما لم ينشأ من بدنه ، وبلغ من المهابة بالقوة التي زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله في أمثال هذا التكوين ·

للناس أن يعطوه وهم على ثقة أن يستردوا ما أعطوه وزيادة ، وللحياة أن تعطيه وهي على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه في ازدياد ، وعلى كل أمانة عنده كائنا ما كان معطيها حق مصون ، ومزيد مضمون ·

صورته المجملة أنه الأمين وأكثر من الأمين ··

الامين في الصداقة ، والامين في الحكومة ، والامين في السيرة ، والامين في المال ، والامين في الايمان ، ثم هو في كل أولئك أكثر من الامين ·

عصمته العواصم من فتنة الغواية فولد كريما تعنيه العزة بين الأقوياء ، ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء ·

وكبر وليس له مأرب في سيادة باغية ، ولا في صولة دائمة على من لا يريدها ولا يطمئن اليها ·

وكبر في تكوينه حدة الشعور وحماسة اليقين ، وسليقة الاعجاب ، وعصمة المروءة والوقار ·

وكبر وكل فضيلة فيه تكبر الى آمادها ، فلما مات كان أكبر ما كان ، وأكبر ما يتأتى أن يكون ··

مات وهو صاحب الدعوة الثانية في الاسلام ، فكان الثاني حقا بعد النبي عليه السلام في كل شيء ، من قبول الاسلام الى ولاية أمر الاسلام الى تجديد دعوة الاسلام ، بعد أن نقضت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن ترجع بها الى الجاهلية الجهلاء ·

ثاني اثنين ، وأول مقتد وأول مجيب ··

ذلك موضعه في تلك الدعوة الانسانية التي نشأت في أمة واحدة ثم غيرت ما بعدها في جميع الأمم ، سواء منها من علم بها

ومن لم يعلم ، وهي دعوة صديقه وصفيه ونبيه محمد صلوات الله عليه •

قيل انه مات بالسم في أكلة أكلها قبل عام بن وفاته ، وليس لهذا القول مرجع يميل الباحث الى تصديقه •

وقيل انه مات بالحمى لأنه استحم في يوم بارد ، وقد مات في شهر قائظ كما يظهر من مضاهاة الشهور العربية على الشهور الشمسية ، فليس لهذا القول سند صحيح

وأغلب الظن أنها حمى المستنقعات « الملاريا » التي أصيب بها بعد الهجرة الى المدينة ، ثم عاودته في أوانها مرة أخرى وهو شيخ ضعيف ، فجددت الاصابة الثانية عقابيل (١) الاصابة الأولى ، وانتهت حياة بلغت نهايتها في حيز الجسد ، وفي حيز المجد ، وفي حيز التاريخ •

---

(١) عقابيل : جمع عقبول وهي بقايا العلة •



الفهـــــــرس













المكتبة العصرية للطباعة والنشر لصاحبها : شريف عبد الرحمن الانصاري
الناشر الوحيد خارج مصر منذ عام ١٩٧٣ لكتب الكاتب الاسلامي الكبير
عباس محمود العقاد

بيروت — لبنان ص.ب. ٨٣٥٥ | صيدا : تلفون ٧٢٠٦٢٤
تلفون : ٢٣٧٥٤٥ | : ٧٢١٦١٢

الثمن